204

HARLEQUIN

روايات أحلام

من يطفئ الحنين ؟

سارة كريفن

www.elromancia.com

مرمورية

من يطفئ الحنين؟

قديماً اتهم كاي هادن بسرقة عقد أدريان، بعد ان سرق قلبها؛ فتم طرده من منزل العائلة الذي احتضنه..
ومرت السنين. وعاد ابن الخادمة ثرياً وسيماً، متسلطاً..
فماذا يريد الآن؟

- انتظرت طويلاً كي تتمكن من الانتقام مني بعد أن تسببت في ابعادك طيلة تلك السنوات يا كاي؟
ليتك دخلت السجن!
- السجن فقط؟ ظننتك تفضلين لي جهنم!

لكن، بعد أن استولى كاي هادن على كل شيء، كان مصيرها هي السجن... إلا إذا قبلت بشروطه...

ساره كريڤن

بدأت ساره كريڤن بالكتابة لشركة «ميلز آند بونز» سنة ١٩٧٥، وقد باعت منذ ذلك الحين ما يناهز السبعة عشرة مليون نسخة من كتبها في أنحاء العالم. وهي تهوى إلى جانب الكتابة، مشاهدة الأفلام والاستماع إلى الموسيقى والطهو، كذلك تناول الوجبات اللذيذة في مطاعم فخمة. تعيش ساره كريڤن الآن في مدينة «سومرسيت» وهي متمرّسة في متابعة برامج المسابقات التلفزيونية والمشاركة فيها.

١ ـ شبح من وراء الزمن

إنه الوقت المفضَّل لدى «أدريان»... تلك اللحظات الهادئة من الصباح الباكر حين تكون وحدها في البيت، قبل أن يصل الدهانون والنجارون والنقاشون لاستئناف العمل في إصلاح منزل «ويلد هيرست غرانج» وإعادته إلى سابق تألقه ومجده.

كانت تحب التنقل متمهلة من غرفة إلى أخرى، فتفتح النوافذ مزيحة ستائرها الجديدة أمام شمس أواخر الصيف، تاركة مخيلتها تعود بها إلى حين قررا، هي وبيرس، الزواج والعيش هنا، فلا تعود مجرد مصممة ديكور داخلي وإنما سيدة المنزل وزوجة بيرس.

إن سعادتها لا تُضاهى، وكلما فكرت في الأمر أحست بالغبطة واعتبرت نفسها محظوظة. ذلك أن كل شيء حدث في مصادفات غريبة منذ تعارفهما في «ويلد هيرست» قبل سنوات، حين خفَّ لنجدتها من ورطتها... ثم أعادهما المنزل هذا إلى بعضهما البعض، عندما ورثه بيرس من خاله «أنغس ستربتون»، وكان آنذاك مهملاً يحتاج إلى مصمم ديكور للمساعدة في إصلاحه كي يصبح عشهما الزوجي. أسفها الوحيد أن بيرس لم يكن موجوداً يتابع أعمال التجديد في منزل المستقبل، لأنه كان يعمل في البرتغال.

قال لها في آخر لقاء جمعهما:

ـ وأنا أيضاً آسف جداً، يا حبيبتي! ولكن لا بد من ذلك. إذ عدا ما يحتاجه المنزل من عمل وجهد، سيكلف إصلاحه الكثير، وأريد أن أضمن

www.elromancia.com
مــرومـانسيـة

وجود المال الكافي لذلك، فلا أضطر إلى الاكتفاء بإصلاح من الدرجة الثانية. أريد أن يكون لديك كل شيء».

كانت أدريان قد احتجت على كلامه:

ـ لكنني لا أريد كل شيء! ويمكننا أن نعمل تدريجياً... فنصلح في البداية الغرف التي سنستعملها.

لكن بيرس لم يصغ إليها، قائلاً إنه لا يريد إمضاء السنوات العشر التالية مع العمال والصناديق... تنهدت أدريان وهي تسمع وجهة نظره.. ثم أخذت تكتب إليه أسبوعياً، وترسل تقارير مفصلة عن تطور العمل، بما في ذلك عينات من الأقمشة والألوان، بينما كان هو لا ينفكُّ يتصل تليفونياً وبريدياً وبالفاكس. كل ذلك لم يكن ليعوّضها عن غيابه.

كان قد همس لها: «بعد تأسيس الشركة، لن أبتعد عنك أبداً! هذا وعد! فكري فقط كم سيكون المنزل شاهداً رائعاً على موهبتك في الديكور! سيزدهر عملك عندما نبدأ باستقبال الزائرين».

آنذاك ضحكت أدريان واحتضنته. لكنها في داخلها صممت على أن يكون هذا المنزل بيتهما وملاذهما الخاص، قبل أي شيء آخر. على كل حال، وحتى قبل أن تلتقي بيرس مرة ثانية وتقع في حبه، ثم تشارك في مشروع إصلاح المنزل، كان عملها مزدهراً.

كان العمل يقوم أساساً على امرأتين: المصممة، أي أدريان نفسها، وزيلدا مارتن، التي كانت خياطة ماهرة. ولم يكن ينقصهما زبائن. كانت تحلم بنجاح أكبر منذ البداية. ذلك أن عودتها إلى مدينتها الريفية الهادئة حيث نشأت لم تكن واردة لديها على الإطلاق. لكن وفاة أمها المفاجىء منذ ثلاث سنوات جعلها تعاود التفكير في مستقبلها كلياً.

كان على أدريان، وهي تندفع عائدة من لندن، أن تواجه حقيقة كونها قد أصبحت الآن وحيدة في العالم. لكنها ورثت «كوخ ليستو»، وبعض المال من بوليصة التأمين على حياة أمها، ما منحها، لأول مرة، نوعاً من الاستقلال المادي. أدركت باكتئاب أن حياتها ستتغير لكنها لم تكن تعرف

كيف، حتى صادفت «زيلدا» في الجنازة.

مرّ وقت طويل على تعارفهما منذ أيام الدراسة في الصف نفسه، لكنهما لم تسلكا الطريق ذاته. كانت زيلدا تلميذة حادة الطباع، دائمة التورط في المتاعب مع إدارة المدرسة. وفي سنتها النهائية من الدراسة، حيرّت الجميع بفوزها بجائزة «التدبير المنزلي». لقد صنعت سريراً خشبياً لطفل، زينته بستائر من صنع اليد، ولحاف مطرز رائع الجمال، كما خاطت طقماً كاملاً من ملابس الطفل. قبل أن تبلغ السابعة عشرة، تزوجت من ميكانيكي يعمل في كاراج، وتبع زواجهما السريع طلاق أسرع.

فوجئت أدريان برؤيتها في الجنازة، ودعتها تلقائياً إلى زيارتها.

وعندما انصرف المعزّون، قالت لها زيلدا، بعد أن جالت بنظرات حزينة في أنحاء غرفة الجلوس:

ـ كم فكرت في والدتك العزيزة! لقد صنعت لها هذه الأغطية والستائر منذ شهرين فقط!.

لم يبد على زيلدا، ظاهراً، تغيّر كبير. ما زال شعرها الطويل الفاحم وأنفها الحاد على حالهما. ولكن بعد أن تحدثتا، أحست أدريان بنضجها الهادىء، وأعجبها مظهر كتفيها النحيلتين القويتين، كما أدهشها إبداعها في صناعة الستائر والأغطية.

سألتها: «هل تعملين بشكل مستقل؟».

فهزت زيلدا رأسها: «كم أتمنى ذلك! إنني أنفذ طلبات الزبائن في شركة «بيزلي» في مدينة إندرثون، لكنهم يدفعون لي الحد الأدنى للأجور. حاولت القيام ببعض العمل في البيت، لكنني عدت للإقامة مع أبي وأمي والأطفال، وليس ثمة مكان للعمل، خصوصاً مع «كيفين».. تباً».

ـ تباً؟!.

ـ هذا ما أدعو به ابني كيفين الذي سيحمل اسم والده، لكنني لا أريد أن أتذكره!.

عضت أدريان شفتها: «معك حق! من المؤسف أنك لا تتمكنين من

www.elromancia.com

العمل لحسابكِ. . إنك مبدعة حقاً!».

ـ لا سبيل إلى ذلك، إن أبي يجُنّ إذا سمع صوت آلة الخياطة كما أنه لا يطيق رؤية ابني يلهو حوله.

كان حديثهما مختصراً، لكنه لم يبارح ذهن أدريان. في الأيام التالية، جلست أدريان لتضع خطة للعمل. كان ثمة فراغ في السوق من دون شك، وشركة «بيزلي» ليست منافسة حقيقية. ثم إن أدريان وحدها القادرة على تقديم تصميمات للديكور الداخلي، كان بإمكانها أن تعيّن بالضبط الحرفيين الماهرين في المنطقة، فتستخدمهم كمتعاقدين فرعيين. أما زيلدا، فستعمل معها في صنع الستائر والأغطية وما أشبه. . .

أدركت أن المكان سيطرح مشكلة، إلى أن ألقت نظرة شاملة على الكوخ. لم يكن فسيحاً، وكان بحاجة إلى تحديث. ولكن حول فنائه الخلفي ثمة اصطبلات ومبانٍ قديمة ملحقة بها لم تستعمل منذ سنين وهي قابلة للاستعمال. كان هناك مساحة كافية لغرف عمل، ومكتب، وشقة مستقلة.

عندما وضعت أدريان أخيراً خطتها أمام زيلدا، سألتها هذه بلهفة: «هل أنتِ جادة في هذا الأمر؟ يبدو لي أجمل من أن يكون حقيقة!».

ـ إنني أعني كل كلمة قلتها. ثم إن الشقة ستحتوي على غرفتي نوم. وهكذا يوجد مكان فسيح لك ولابنك.

قالت ذلك لأنها كانت تعلم أن زيلدا وابنها يعيشان في غرفة صغيرة ذات سريرين صغيرين أحدهما فوق الآخر.

همست زيلدا:

ـ غرفة لنا وحدنا! هذا أشبه بالحلم! لا أريد أن يقرصني أحد ويوقظني منه!

لكن الحلم سرعان ما أصبح كابوساً عندما أخذ العمل يخلق لهما كلّ أنواع المشاكل، مكلفاً من المال أكثر مما كانتا تتوقعان. رهنت الكوخ، وزادت قرض البنك اعتماداً على خطتها. أما زيلدا، التي لم تكد تصدق أنها ستصبح شريكة، فقد أصرّت على المساهمة بالمبلغ الذي كانت تلقته تعويضاً

من زوجها السابق.

غير أن ثقتهما بنفسهما كان لها ما يبررها. فقد ابتدأت الطلبات تنهال عليهما منذ اليوم الأول، وكان عليهما استئجار مكان اضافي لتأمين الطلبات المتزايدة. وسرعان ما أصبحتا بعد ذلك في مكتبهما الجديد حيث أمضتا فيه قرابة السنتين، استخدمتا أثناءهما المزيد من العاملات في الخياطة.

قالت أدريان مازحة: «ما كان علينا أن نتكمش في مكان ضيق! . ربما كان علينا أن نحاول الحصول على منزل «غرانج» بدلاً من كل هذا».

فقالت زيلدا: «لولا أن منزل «غرانج» غير معروض للبيع! من المؤسف أن يبقى منزل كهذا خالياً!».

فتنهدت أدريان: «نعم! عندما كنت طفلة، اعتدت الذهاب إلى هناك برفقة والدي الذي كان يلعب الشطرنج مع السيد ستريتون».

ـ وماذا كنت تفعلين أنت؟

ـ آه! أقرأ كتباً في مكتبه، وألعب في الحديقة!

ـ وحدك؟

ترددت أدريان، شاعرة بإنذار خفي في نفسها، ثم قالت:

ـ ليس دائماً. كان هناك أحياناً ابن أخت السيد ستريتون، بيرس. كانت أمه قد تزوجت رجلاً برازيلياً لم يرض السيد ستريتون عنه، فحدث بينهما شجار عنيف. ويبدو أن السيد ستريتون قبل في النهاية فكرة أن يكون بيرس وريثه، فدعاه للإقامة عنده، رغم استمراره في مقاطعة والد الصبي. كان والداي يقولان إن السيد ستريتون يكرهه جداً، ويراه رجلاً سيئاً.

ـ أتظنين السيد ستريتون سيعود يوماً ما؟.

ـ لا أظن ذلك. فقد انتقل إلى إسبانيا لأجل الجوّ الدافئ واستقر هناك. . (وعادت أدريان تتنهد) لا أستطيع تصديق ذلك!. الأرجح أن يؤول المنزل إلى بيرس، ولكن على الخال أن يتعرف إليه جيداً.

ـ وربما يظنه سيئاً كأبيه!.

قالت أدريان بقوة: «هذا غير ممكن، لأنه من أرق وألطف الناس الذين

www.elromancia.com

عرفتهم. وقد أنقذني مرة من التهاب رئوي، أو ربما مما هو أسوأ».

- وكيف؟.

عضت أدريان شفتها، ثم قالت: «حسناً! كان هناك بيت صغير على شجرة سنديان ضخمة في الغابة خلف المنزل. تسلقتها مرة صاعدة إليه، وكنت في التاسعة من عمري، ثم لم أستطع النزول. عثر علي بيرس، ولولاه لبقيت هناك ساعات. كنت متجمدة من البرد منهارة من الخوف. وما زلت حتى الآن لا أجرؤ على النزول عن الأشجار أو السلالم الخشبية. ولكن هذا ليس كل شيء. فعندما كنت في الثامنة عشرة، أقام لي السيد ستريتون حفلة يوم مولدي في منزله «غرانج» وأهداني عقداً قديماً من العقيق رائع الجمال. لقد سُرق مني أثناء الحفلة، ثم عثر عليه بيرس. كان الأمر مروّعاً أفسد يوم مولدي، وكان بيرس في منتهى اللطف والتفهم!».

- حسناً، فلنسمع أخبار بيرس الآن.. بطل الساعة!. ماذا حدث له؟.

- آه!.. بعد ذلك بوقت قصير، أقفل السيد ستريتون المنزل ثم ذهب ليعيش في إسبانيا. وأظن أن بيرس عاد إلى البرازيل.

- هذا مؤسف!. وبالمناسبة، من الذي سرق العقد آنذاك؟.

- واحد من الخدم.. ليس شخصاً مهماً.

وجدت نفسها تفكر في أن بيرس لا بد قد بلغ الثانية والثلاثين الآن.. وكذلك الشخص الآخر، ذلك الشخص الذي لا تريد ذكر اسمه. الشخص الذي كان سبب كل تلك الكوابيس...

لابأس! كل ذلك كان من الماضي، ولا يمكن للماضي أن يؤذيها. وبحزم، عادت تغلق أبواب ذاكرتها، نادمة على فتحها ولو للحظات.

بعد ذلك بعشرة أيام فقط، جاءت الأخبار بوفاة «أنغس ستريتون» في إسبانيا، ودفنه هناك.

على أي حال، قرّر كاهن الرعية إقامة قداس عن روحه في كنيسة الأبرشية، وفوجئت أدريان بحضور بيرس.

توقع الجميع أنه، بعد القيام بواجبه هذا، سيعرض المنزل للبيع ومن ثم

www.elromancia.com

يتابع حياته في مكان آخر.

ولكن كم كانوا على خطأ! هكذا أخذت أدريان تحدث نفسها، وهي تبتسم، أثناء اجتيازها الممرّ الطويل المؤدي إلى الجناح الرئيسي في المنزل.

لقد جاء، والتقيا مرة أخرى، وبسرعة أصبح كل شيء مختلفاً ورائعاً!.

فتحت الباب ودخلت الغرفة الرئيسية. كانت غرفة فسيحة، ذات أبواب تؤدي إلى غرفة الملابس الملحقة بها والحمام، وكلاهما جُدّد كلياً.

لم تكن الغرفة قد أُثثت بعد، ورائحة الدهان الجديد وورق الجدران السكري اللون لا تزال تملأ المكان. وكانت الأرض مفروشة بسجادة ذات لون أخضر قاتم.

تمنت أدريان لو أن بيرس احتفظ ببعض أثاث خاله. فقد كان الكثير منه قديماً، وربما ثميناً، ويتناسب مع جو المنزل، لكنه أصرّ على تغيير كل شيء. وحينذاك طبعاً، عثرت على السرير.

لقد اكتشفته معروضاً للبيع، في بعض المحلات في الريف، أثناء التنزيلات. كان سريراً حقيقياً بأربعة أعمدة، وبحاجة إلى الترميم. لكنها حصلت عليه رخيصاً، وناولته إلى «فرايد ديرونت» المختص بمثل هذه الأمور، والذي تلقاه بمزيج من السرور والرهبة..

أخذت أدريان تحلم في أنه سرعان ما يستقرّ وسط الغرفة.. ويكون سرير الزوجية!.

أما زيلدا، فقد وجدت بعض القماش الرائع، حيث يندمج فيه الأزرق والأخضر والذهبي، فصنعت منه ستائر للنوافذ وغطاء للسرير.

أخذت تفكر في أنهما، هي وبيرس، سيكونان بعد ثلاثة أشهر زوجين.

احمر وجهها لفرط السعادة، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة.

ستحتفظ هذا الموعد، على كل حال! لكنها ستكون، حينذاك، مرتدية معطفاً منزلياً من الحرير العاجي اللون والدانتيل كانت اشترته في آخر زيارة لها إلى لندن، وذلك بدلاً من هذا «الروب» الرث. أخذت تفكر في ذلك

وهي تنظر إليه باستخفاف... وسيكون شعرها البني المائل إلى الاحمرار منسدلاً على كتفيها بدلاً من رفعه هكذا بشكل غير أنيق!... وبعد أن تزيح الستائر الجديدة عن النافذة، وتنظر إلى الأفنية الفسيحة خلف المنزل، ستتوجه إلى السرير وتوقظ بيرس.

حتى الآن، كل هذا كان مجرد تخيلات تثير أحاسيسها، لكنها لن تلبث أن تصير حقيقة واقعة.

سارت إلى النافذة ببطء وأخذت تتأمل المشهد الذي باتت تحبه. لكنها سرعان ما شهقت رافعة يدها إلى رأسها! رأت رجلاً واقفاً وسط الفناء المعشوشب، رافعاً بصره إلى المنزل... رجلاً يرتدي السواد، وقد ألقى معطفه على كتفيه، كما التفّ حول ساقيه ضباب الصباح الباكر... مسبغاً عليه جواً خيالياً، لكأنه قادم من عصر آخر في غفلة من الزمن!.

كان ساكناً بحيث ظنته تمثالاً وضعه شخص ما أثناء الليل متعمداً إخافتها بهذه المزحة الثقيلة.

وإذا بها ترى الهواء يحرك ذيل معطفه ويشعّث شعره الأشقر الداكن، فأدركت أنها تواجه إنساناً من لحم ودم. لكنه لم يكن بيرس! وهوى قلبها، وقد تحوّل ذهولها إلى خيبة أمل! ليس بيرس بطول هذا الشخص، كما أن شعره أسود! مع ذلك، وللحظة، تملكها شعور غريب بأنه مألوف لديها.

تساءلت عمن يكون، وماذا يفعل هنا؟.

كان الزوار يتوافدون على المنزل «غرانج». بعضهم بدافع الفضول للتفرج على أعمال الإصلاح وتقدّمها. غير أنهم لا يأتون عند شروق الشمس.. كما أنهم يستأذنون عادة قبل الزيارة.

ابتلعت أدريان ريقها وتساءلت بخوف: زائر يحضر دون إخطار، في هذا الوقت الباكر من النهار، لا بد أن يكون دخيلاً متطفلاً لا يضمر خيراً!.. أو لعله؟!.

كانت سمعت عن منازل خالية تعرضت للنهب، فسرقت كل محتوياتها بما في ذلك بعض الأجهزة الثابتة. وفي الطابق السفليّ هناك المطبخ الجديد،

وكذلك مكتبة «أنغس ستريتون» العامرة بالكتب.

قالت بصوت خافت وتصميم: «لكن هذا المنزل ليس خالياً، وأنت لن تأخذ منه شيئاً!» ثم اندفعت خارجة من الغرفة متوجهة نحو السلم المصنوع من خشب السنديان.

كانت غرفة الاستقبال في مؤخرة المنزل، تطل على المشهد. كما أن ثمة باباً فيها يؤدي إلى الشرفة الخارجية حيث المدخل. ركضت إليه وهي تخرج المفاتيح من جيب معطفها المنزلي.

كان بلاط الشرفة البارد تحت قدميها الحافيتين هو الذي نبهها إلى ما كانت مقدمة عليه. فترددت وهي تنظر حولها، متأملة الفناء الذي أصبح الآن خالياً، مدركة أن ذلك الشخص الأسود لم يعد موجوداً. وفي الوقت نفسه سمعت صوت سيارة تبتعد... لا بد أنه كان أوقف سيارته في جانب المنزل حيث لا يمكن رؤيتها!.

انتبهت أدريان إلى أنها كانت تحبس أنفاسها، فتنفست الصعداء وهي تعود إلى التفكير بشكل عقلاني.

تساءلت عما كانت توشك أن تفعل وهي تندفع إلى هنا كالمعتوهة لا تحمل للدفاع عن نفسها سوى سلسلة مفاتيح؟!.. عدا أنها لم تكن ترتدي سوى معطف منزلي لا يمكن أن يصلح لمقابلة أحد!.

أخذت تفكّر في ذلك وهي تحكم شدَّ الحزام حول خصرها النحيل. لقد انصرف ذاك الغريب!.

ولكن لماذا لم تبق في المنزل وتستعمل تليفونها طلباً للنجدة؟! وكيف أمكنها المجازفة بهذا الشكل الأحمق؟! ربما كان شرساً فيصيبها إصابة بالغة أو بما هو أسوأ!. قد يكون افترض أنها ليست وحدها، وإلا لبقي في مكانه!. لا بد أنه كان يعلم بوجودها، ولا بد أنه رآها، بشكل ما، في النافذة، وأن جسمه قد تصلّب حينذاك!.

هذا جنون!... أخذت تفكر في ذلك وهي ترتجف، لإدراكها أن نجاتها منه كانت أعجوبة!.

www.elromancia.com

قد يكون رآها لأنها من تلك المسافة تبدو كشيء في المنزل غير واضح المعالم! هي نفسها ما كانت لتلاحظ كل تلك التفاصيل لولا مخيلتها الخصبة! . . . هكذا أخذت تحدث نفسها بحيرة وقلق.

اعتدلت في وقفتها وعادت إلى غرفة الاستقبال، مطمئنة نفسها بأن ذلك الأمر قد انتهى من دون أي مكروه. ولكن عليها أن تتقدم إلى الشرطة ببلاغ عما حدث، رغم أنها لا تملك الكثير مما ينبغي الادلاء به، ولا سيما أوصاف السيارة ورقم لوحتها.

هذا الشخص اقتحم عليها عزلتها! . . . أخذت تفكر بذلك وهي تصعد السلم إلى غرفتها حيث تستحم وتغير ملابسها. . . وأفسد عليها الاستمتاع بتلك الساعة الذهبية المبكرة من النهار! . . وجعلها تشعر بالضيق والتوتر وكأن عاصفة على وشك الهبوب!

ثم أخذت تعنّف نفسها لتصرفها كطفلة مدللة. فأمامها الغد، وكل الأيام التالية، للاستمتاع بتلك الساعات المبكرة. . . ثم لعله رجل مسكين كان يقود سيارته طوال الليل فضلّ طريقه من التعب! . . .

هزّت رأسها بغضب وهي تقف تحت الدوش. ارتدت ثياب العمل، بنطلوناً وقميصاً متقفلاً، وجمعت شعرها إلى الخلف بربطة مطاطية. أثناء تناولها فطورها المؤلف من القهوة والخبز المحمص، أخذت تعيد التفكير في ما على العمال أن يقوموا به حين يصلون، مدوّنة ملاحظات على اللوح المخصص لذلك.

كان موقد المطبخ لا يزال بحاجة إلى بعض القرميد، وبعض أنابيب المياه في غرفة الغسيل بحاجة إلى إصلاح. غرفة الأزهار القديمة تحولت إلى غرفة للمعاطف في الطابق السفلي، وانتهى العمل في تلبيس غرفة الاستقبال بالخشب، لكن السقف كان بحاجة إلى طبقة أخرى من الدهان.

انتهى العمل في غرف النوم، ما عدا الغرفة التي كانت تحتلها في مقدمة المنزل. قررت أن تبدأ بذلك، فأخذت تنزع ورق الجدران القديم بالآلة البخارية. كان عملاً يثير الفوضى في الغرفة، لكنها كانت مستمتعة به.

عندما أحضرها بيرس إلى المنزل لترى ما يحتاج إليه من إصلاحات، كادت تبكي وهي تتذكر كيف كان أيام وجود السيد ستربتون. لقد تساقط الجص عنه، وبقع الرطوبة ظاهرة على سقوف غرف الطابق العلويّ. آنذاك تمتم بيرس قائلاً: «يا إلهي!، لعل الأسهل أن نهدم هذا المنزل!».

ـ لا بل سنعيده رائع الجمال كما كان، وسترى!.

وكانت عند وعدها. . . كما أخذت تفكر وقد ملأها شعور بالرضا. يبدو المنزل الآن رائعاً! معظم العمل الباقي هو تجميلي. . . وبعض اللمسات الأخيرة. . وستكون الكلفة المتبقية متواضعة على الأقل بالنسبة إلى آخر مبلغ دفعته لتوّها! . . وارتجفت لتذكرها ذلك.

كانت قد أنهت جزءاً كبيراً من عملها في تقشير الجدران، عندما خطر لها أن العمال تأخروا. فأنهت العمل الذي بين يديها، ثم تناولت تليفونها الخلويّ. . لكنه أخذ يرنّ قبل أن تطلب الرقم، ما جعلها تقفز مجفلة وهي تشتم بصوت خافت. قالت: «شركة «تصميم الديكور»! صباح الخير!».

ـ هل حضرتك الآنسة لاندر؟ غوردون آرنولد يتكلم.

كان هذا رئيس شركة البناء التي تتعامل معها. فتنفست الصعداء، وقالت: «كنت على وشك الاتصال بك، يا غوردون. لم يأت أحد بعد. هل هناك سبب لذلك؟».

أجاب متمهلاً: «هكذا تقريباً. . . لدينا مشكلة!».

أتراه عطل آخر في سيارة العمال؟ يجب أن يشتري غوردون سيارة «ڤان» صالحة! قالت بجفاء: «حسناً! . . حاول حل المشكلة بسرعة. فالعمل كثير هنا!».

فقال بلهجة غريبة بدا فيها الارتباك: «المسألة، يا آنسة لاندر، أننا قمنا بالعمل، ودفعت أنت لنا الأجر كالعادة. إلا أن البنك، أعاد إلينا الشيكات!».

جمدت أدريان في مكانها لحظة، شاعرة بالبرد يتملكها رغم أن هذه الغرفة تسبح في أشعة الشمس.

www.elromancia.com

- لا بد أن هناك خطأً ما!.

أجاب بشيء من اللهفة: «هذا ما قلته أنا بالضبط. وهكذا ذهبت إلى البنك، لكنهم لم يقبلوا التحدث إليّ، قائلين إن عليّ مراجعتك!».

فتأففت قائلة بثقة: «سأتصل بهم بنفسي!. لا بد أنه خطأ من الكومبيوتر!».

- أظن ذلك بشكل عام. سأترك الأمر لك إذن، يا آنسة لاندر. إنما لا يمكننا متابعة العمل قبل التأكد من أننا سننال أجرنا، كما أن لدينا أعمالاً أخرى في الانتظار!.

- نعم، بالطبع! سأنهي كل شيء كما يجب بعد ظهر هذا اليوم، يا غوردون. تشجّع!.

لكنها لم تشعر بأي شجاعة وهي تعيد التليفون إلى مكانه.

لا بد أن شيئاً غير عادي قد حدث! أخذت تفكر في ذلك وهي تذهب إلى غرفتها لإحضار حقيبة يدها وارتداء سترة لاستمرار شعورها بالبرد.

ثمة خطأ! لا بد أنه كذلك! في ذلك الوقت، وبشكل ما، كانت صورة الشخص الصامت الملتفّ بالسواد، الواقف دون حراك أمام المنزل، لا تزال تراودها، وكأنها نذير شؤم.

لا تكوني حمقاء، يا «آدي»!... ما عليك إلا الذهاب إلى البنك لتضعي حداً لهذا الارتباك!... قالت أدريان ذلك تحدث نفسها، مستعملة اسم الدلال الذي كان يُطلق عليها في طفولتها.

كان النظام الذي سارا عليه، هي وبيرس، بسيطاً للغاية. لقد فتح حساباً في البنك المحلي مستخرجاً دفتر شيكات باسمها، فكانت ترسل إليه كل شهر كشفاً بنفقاتها فيحوّل هو إليها المبلغ المطلوب.

قالت له حينذاك: «إنك مبالغ في ثقتك!».

فأجاب: «لأنني أحبك. والمحب يثق بمحبوبه».

ومضت الشهور الأربعة الأخيرة بانتظام دقيق.

أما الآن، وعندما حان موعد دفع «الفواتير» الأكثر ارتفاعاً، حدث هذا

الانقطاع!.

أخذت تذكر، وهي تشغل محرك سيارتها «الجيب»، في أن الأمر قد يكون خطأ بسيطاً، لاسيما وأن المعاملات أصبحت تنجز آلياً. ولكن لماذا يحدث في هذا الشهر بالذات؟.

كان البنك مزدحماً؛ وأثناء انتظارها عند مكتب الاستعلامات، تملكها شعور غريب بأن الناس ينظرون إليها، وأن اثنين من الموظفين تبادلا النظرات حين دخلت. لعلهما أدركا خطأهما وأصبحا في حيرة كيف يعتذران!.

بدا الارتباك على موظفة الاستعلامات حين رأتها:

- آه، يا آنسة لاندر! حاول المدير أن يتصل بك في البيت، لكن المجيب الآلي هو الذي رد علينا!.

فرفعت حاجبيها: «هذا صحيح! فأنا أقيم في المنزل «غرانج» للاشراف على العمل».

- آه، هذا يفسر الأمر! هلاّ تفضّلت بالجلوس بضع لحظات؟! السيد دافيدسن يريد التحدث إليك حالاً.

شعرت أدريان بالسرور لجلوسها لأن ساقيها كانتا ترتجفان. فالكلمات التي سمعتها لم تكن تنمّ عن أي اعتذار من قِبل البنك، بل العكس...

تمنت لو كانت كلفت نفسها عناء تغيير ملابسها، فارتدت ثوباً جميلاً ووضعت شيئاً من الزينة على وجهها، لأن شعوراً غريباً تملكها بأنها ستحتاج إلى ذلك. فقد كانت تعلم أنها، بمظهرها الحالي، تبدو في السادسة عشرة... وإذا بالسيد دافيدسن إلى جانبها: «الآنسة لاندر؟ تفضلي إلى غرفة المقابلات!».

قال ذلك بابتسامة شاحبة محولاً عينيه عنها. وكان ذلك مختلفاً جداً عن حماسته المعتادة عندما يكون الحساب بينهما مدفوعاً.

جلست على المقعد الذي قدمه إليها، ثم قالت: «علمت، يا سيد دافيدسن، أنك أعدت بعض شيكاتي».

www.elromancia.com

ـ لم يكن أمامي خيار آخر، يا آنسة لاندر! . فأنتِ لم يعد لديك رصيد في هذا البنك.

أخذ قلبها يخفق، شاعرة بالاختناق. وسمعت نفسها تقول بهدوء لا يصدّق: «لا بد إذن أن الدفع تأخر لسبب ما. هل بإمكانك أن تمنحني دقائق معدودة ريثما أتصل بخطيبي».

ـ لا، مع الأسف، يا آنسة لاندر! فقد تبلغنا أننا لن نتلقى ودائع أخرى. ألم يبلغك السيد «ميندوزا» بقراره؟.

ـ لا ودائع أخرى؟! ولكن هذا مستحيل! (وشعرت بخدر في شفتيها).

ـ مع الأسف. . . (وسكت وكأنه يختار كلماته بعناية) لديّ أنباء أخرى سيئة علي إبلاغك بها. لقد علمت لتوّي أن السيد «ميندوزا» لم يعد صاحب المنزل «ويلد هيرست غرانج» وأنه باعه إلى «شركة تطوير الأملاك».

شعرت أدريان بطنين غريب في أذنيها، ورأت الغرفة تدور حولها. قالت بصوت مختنق: «كلا، هذا غير صحيح! هذا غير ممكن! إنه. . إنه لا يمكن أن يفعل ذلك! . . ليس قبل أن يخبرني. . . ونتناقش في الأمر. . .».

ـ إنه صحيح تماماً مع الأسف. رئيس الشركة في مكتبي الآن، كما أن. . . إلى أين أنت ذاهبة يا آنسة لاندر؟.

انزلق مقبض الباب في يدها الرطبة، لكنها فتحته وخرجت مهرولة.

كان باب مكتب المدير مشقوقاً فدفعته ودخلت، عارفة من ستقابل، خائفة من. . .

كان ثمة رجل واقف عند النافذة، طويل القامة، يرتدي بنطلوناً أسود رائع التفصيل، وكنزة سوداء صوفية عالية العنق. كان معطفه الطويل موضوعاً على كرسي بجانبه، وشعره الأشقر الداكن الممشط بشكل أنيق يصل إلى ياقة كنزته. كان وجهه مستدقاً بفم وذقن قويتين، وكذلك الأنف. كما كانت العينان اللتان تحولتا إليها رماديتين باردتين كبحر الشمال وعلى إحدى وجنتيه أثر جرح قديم، ندبة مثلثة الشكل.

عرفت أدريان تلك الندبة، لأنها هي من سببتها. . . حدث ذلك حين

كانت في التاسعة من عمرها، وكانت جائعة، هائجة الأعصاب ترتجف برداً، لأنه تعمد تركها فوق شجرة عالية مدة ساعات عقاباً لها، دافعاً إياها إلى الاعتقاد بأنها ستبقى هناك وتموت.

وهكذا التقطت آنذاك حجراً ورمته به. شهق وألقى برأسه إلى الخلف، فرأت خيطاً من الدم على وجهه، ما شفى غليلها نظراً للكراهية التي شعرت بها نحوه حينذاك. لقد أرادت أن تؤذيه حقاً!.

في تلك اللحظة، نظر إليها بهاتين العينين الرماديتين الباردتين مثلما ينظر إليها الآن بالضبط، بازدراء ونوع من الغطرسة، ومن دون شفقة. لقد خافت حينذاك، وهي خائفة الآن. لم تستطع الكلام أو التراجع، رغم أنها لم تعد طفلة، أو في الثامنة عشرة حين أفسدت السرقة حفلة يوم مولدها.

طوال تلك السنوات، نفته من ذهنها، رغم أن أثر تلك التجارب المريرة مازال في نفسها، فكلما أرادت ارتقاء سلم، تملكها شعور بالغثيان والدوار وكلما فتحت الدرج الذي تضع فيه حليّها ورأت العلبة المخملية الفارغة التي كانت تحتوي ذات مرة على العقد النفيس، شعرت بوخز في صدرها.

لقد أقنعت نفسها بأنها لن تراه مرة أخرى، وأنها استطاعت دفن الماضي، ولا بد أنه فعل الشيء نفسه، لكنها كانت مخطئة. فها هوذا الآن أمامها وها هي ذي مرة أخرى تجد نفسها وحيدة عاجزة يملأها الرعب.

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ يسرق مرة أخرى!

ـ لقد مضى وقت طويل، ياأدريان!.

أصبح صوته أكثر عمقاً، ولكنها ما زالت تستطيع أن تميز فيه تلك البحة.

إنها لن... لن تسمح لنفسها بإظهار الضعف أمامه مرة أخرى، أو بالأحرى للمرة الثانية! وهكذا رفعت رأسها بتصميم: «رباه!، إنه فتى «هادن»!».

ـ لا، لم أعد كذلك، وإنما أنا الآن رجل وهو أمر أريدك أن تضعيه في اعتبارك!.

ـ هل هذا تهديد؟! لقد كنت ماهراً فيه على الدوام!

ـ واتهام أيضاً لما أنت عليه من نبوغ أكيد، حتى عندما كنت صغيرة بضفائر... وفي ما بعد!.

وأخذت العينان الرماديتان تتأملانها على مهل، ثم عاد يقول: «لم تتغيري كثيراً بالرغم من السنوات الحافلة!».

شعرت بتوتر في حلقها: «آسفة إذ لا أستطيع قول الشيء نفسه عنك! ما كنت لأعرفك لو رأيتك في مكان آخر».

ضحك بلطف: «هل أنت واثقة من ذلك تماماً يا «آدي»؟ ألم يساورك هذا الصباح شك في أنك تعرفينني عندما كنت تنظرين إليّ من برجك العاجي؟».

أغاظها أنه ناداها باسم الطفولة، كما أغاظها التثبت من شكوكها في أنه كان يعلم بوجودها هناك. فقالت باختصار: «آخر ما توقعته أن أراك هناك. ولكنك لم تبق لتقدم نفسك!».

ـ كان لديّ عمل في مكان آخر، وكنت أعلم أننا سنتقابل قريباً جداً. لم أشأ إفساد بهجة مثل هذا اللقاء الذي أرجو ألا يكون الأخير.

كانت لهجته، ناعمة كالحرير. عضت شفتها:

ـ لماذا أنت هنا؟ ماذا تفعل ولماذا عدت؟ إني لا أفهم.

أجاب بابتسامة أثارت أعصابها: «ليس ضرورياً أن تعرفي... ربما أردت مفاجأتك فقط!».

والتفت من فوق رأسها إلى السيد دافيدسن الذي كان ينظر إليهما من عند الباب.

ـ هل كل شيء على ما يرام، يا سيد هادن؟.

ـ نعم، وشكراً!.

تحوّله المفاجيء إلى القوة والجاذبية، جعلها تضطرب داخلياً.

ـ هلاً منحتنا خمس دقائق أخرى؟ أنا والآنسة لاندر نحب أن نجدد معرفتنا القديمة!.

ـ نعم، نعم بالتأكيد!.

ثم تراجع الرجل خارجاً من الغرفة. أرادت أن تصرخ بألا تذهب.. لا تتركني معه! لكنها لم تسمح لنفسها بأن تكشف ضعفها. بدلاً من ذلك، وقفت صامتة وهي تنظر إلى الباب الذي أغلق عليهما، هي و... عدوّها! فقالت: «يا لاحترامه البالغ! يدهشني عدم مخاطبته إياك بسيّدي!».

ـ ربما سيفعل ذلك، مع الوقت. فأنا سأصبح زبوناً بالغ الأهمية عنده.

ـ هل يعلم أنك كنت ابن مدبّرة المنزل؟

لكنها سرعان ما خجلت من هذا السؤال غير المهذب، ولامت نفسها عليه. فقد كانت تحب السيدة هادن، والدته، التي كانت على الدوام بالغة

اللطف والترحيب بها عندما كانت تزور منزل «غرانج» مع والدها.

تذكرت فجأة طاولة المطبخ المصقولة جيداً، والسماح لها بتناول بقايا «الكيك» من العلبة، ومنحها الكعك الطازج المخلوط بالشوكولا.

أجاب بهدوء: «ليس لديّ فكرة. ولكن ذلك لن يشكّل أيّ فرق، لأن المال هو الذي يتكلم... وصوته أعلى من تكبّرك الرجعي!».

صبغ احمرار خفيف وجنتيها لكنها بقيت صامدة: «إذن، فقد علا شأنك في الحياة! يا للغرابة!».

فرفع حاجبيه: «لقد كافحت طويلاً، ونجحت. وهكذا أنوي الاستمرار في ذلك لأحصل على كل ما أريد من الحياة».

ـ منزل «غرانج»، مثلاً؟.

ـ نعم، من ضمن أشياء أخرى!.

ـ إنني لا أصدق! بيرس لن يبيع ميراثه أبداً... وخصوصاً لك أنت!.

ـ إن بيرس يبيع جدته نفسها لكي يخرج من المأزق الذي هو فيه!.

ـ كيف تجرؤ على هذا القول بعد تصرفك السيء معه؟ كنت تكرهه على الدوام.. وتغار منه!.

ـ لم يكن لديّ سبب يجعلني أحبه، لكنني لم أكن أغار منه. لم يكن لديه شيء أريده، خصوصاً في ذلك الوقت.

ـ وأنت الآن تريد المنزل. إنك تسرقه منه، بشكل ما.

ورفعت رأسها باحتقار ثم أضافت: «حسناً، الذي يسرق مرة... يسرق على الدوام!».

قال بلهجة مطاطة: «أصبح لديك منطق سوقي يرثى له، يا آدي! ربما هذا نتيجة اختلاطك بالسيد مندوزا. إنني واثق من أنك ستتحسنين».

ـ لست بحاجة إلى ذلك.. أم تظنني سأترك بيرس لأنه لم يعد يملك «غرانج»؟ إذا كنت تظن ذلك، فأنت مخطىء. ليس المنزل هو ما جذبني إليه على الإطلاق! أنا وبيرس سنبقى معاً مهما ساءت الأمور. وسأتصل به حالما أصل إلى البيت، و...

ـ حسناً، تأكدي من التوقيت المناسب لذلك. (ونظر في ساعته) ربما الوقت الآن منتصف الليل في البرازيل. ولا أظنك تريدين أن تزعجيه في شهر عسله!.

ساد الغرفة سكون عميق مفاجىء. وشعرت أدريان بشيء يقرع في أذنيها، ويقبض على قلبها. نظرت إليه وهي تشعر بالدوار، وبدا كأنه أصبح بعيداً عنها... بعيداً.

قال بصوت قاطع مسيطر: «اجلسي! ضعي رأسك بين ركبتيك وتنفسي بعمق!».

أطاعته، فقط لأن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها.

عندما تلاشى الدوار، واستطاعت أن تتكلم مرة أخرى قالت: «إنك تكذب!».

فقال بهدوء: «لا، بل هي الحقيقة! لقد كان يقابل تلك الفتاة في البرتغال، وأوقعها في شباكه. أبوها برازيلي، وذو نفوذ، فأرغمه على الزواج بها، وكانت البرازيل أكثر أماناً له من لندن ولشبونة».

سكت، ثم عاد يقول: «هل تصدقين، يا أدريان، أنني غير مسرور بإخبارك هذا الشيء؟».

رفعت رأسها تحملق فيه: «لا أصدق. لقد انتظرت زمناً طويلاً لكي تتمكن من الانتقام، يا كاي هادن! انتظرت كي تعاقبني لأنني تسببت في إبعادك طوال تلك السنوات! أتمنى من كل قلبي لو أنك دخلت السجن بدلاً من ذلك!».

عاد إلى السخرية منها: «إلى السجن فقط؟ كنت متأكداً من أنك تفضلين لي جهنم!».

ـ جهنم قليلة عليك!.

وأزاحت خصلة من شعرها أفلتت من تحت العصابة، ثم وقفت مترنحة قليلاً، وهي تكافح بقايا الدوار.

ـ انتبهي!.

www.elromancia.com

وتقدم منها، فتراجعت وهي تقول بصوت غاضب مبحوح:

ـ لا تلمسني! إياك أن تجرؤ على لمسي!.

فقال باسماً: «تهديد، ثم اتهام، والآن تحدٍ! للأسف الشديد، ليس لديّ الوقت ولا الرغبة حالياً في قبول هذا التحدي! وأفهم من كلامك أنك تنهين لقاءنا هذا. . . إلى أين أنت ذاهبة؟».

ـ إني ذاهبة للبحث عن بيرس والتحدث إليه، ولأكشف كذبك وخداعك!

فقال متجهّماً: «ليس لدي ما أقوله بالنسبة إلى الخداع، خصوصاً وأنك مديونة في جميع أنحاء المنطقة! ثم إياك أن تفكري في الذهاب إلى البرازيل، يا آدي، مفترضة أن بإمكانك تدبير أجرة السفر. إنني واثق من أن دائنيك لن يعجبهم ذلك. . هذا عدا عن زوجة بيرس!».

وفتح الباب وأمسكه لها لتخرج: «سأراكِ في ما بعد».

إذا قالت إنها لا تريد رؤيته، سيبدو هذا عملاً صبيانياً! وهكذا مرت به خارجة من دون أن تلقي عليه نظرة.

سمعت السيد دافيدسن يقول: «يا آنسة لاندر. . يا آنسة لاندر! أنا بحاجة للتحدث إليك!».

لكنها تجاهلته، هو أيضاً، وهي تركض متجهة إلى باب البنك.

لم تستطع التفكير بغير بيرس، وبضرورة الاتصال به، تدحض أقوال «كاي هادن» المرعبة. . لا شيء آخر يهمها!.

* * *

الساعة التالية كانت عبارة عن كابوس. حاولت إرسال فاكس إلى بيرس في البرتغال، لكن هاتفه كان مقفلاً وكذلك عنوانه البريدي. كاد الذعر يخنقها، جاعلاً أصابعها شبه مشلولة وهي تضغط على أزرار تليفونها، مجرّبة كل رقم كان أعطاها إياه. وأخيراً، أجابها شخص ما. . . رجل يتحدث بالبرتغالية.

سألت عن بيرس، فسمعته يقول شيئاً بصوت مشوّش وكأنه يغطي

السماعة بيده، وتبع ذلك عاصفة من الضحك. بدا لها أن ثمة أناساً في الغرفة يتجاوبون مع نكتة أثارها سؤالها عن بيرس.

انتبهت أدريان إلى أنها عضت على شفتيها بعنف، وأحست بطعم الدم! وعندما عاد ذلك الشخص إلى الحديث، جعلها تفهم، بإنكليزية ركيكة أن بيرس سافر إلى البرازيل ولن يعود. لم يستطع أن يخبرها إلى أين تتصل به. ومن خلال ضحكات عالية، سمعته يقول لها: «حظاً سعيداً!».

أعادت السماعة إلى مكانها، ثم أخذت تحدق في الفراغ بينما قلبها يخفق بعنف.

شعرت أنها على وشك الانفجار ألماً. . لكنها سيطرت على نفسها إذ لا يمكنها الاستسلام الآن لعذابها الشخصي والغدر الذي تعرضت له. فقد كان هناك أمور أخرى جديرة بالاهتمام.

بفضل بيرس! هي الآن مديونة بآلاف الجنيهات. . هذا عدا عن الرهن وقرض البنك! ثمة أناس في جميع أنحاء المنطقة سرعان ما يطالبونها بأموالهم، وهي عاجزة عن الدفع!.

نظرت حولها في غرفة الجلوس، بأثاثها الحميم وزينتها الجميلة. كل هذا أصبح جزءاً من حياتها، ولكنها سرعان ما ستفقده إلى الأبد. . بالإضافة إلى كوخها وعملها!.

لم يكن يخفى عليها ما سيواجهها. الإفلاس يحدّق في وجهها، وسيطال كل ما حولها أيضاً. زيلدا وابنها سيصبحان دون مأوى! وهناك أيضاً نسوة يعملن معها، ظنَنَّ أنهن أصبحن في وظائف آمنة مستقرة!.

. . كل هذا لأنها وقعت في الغرام؟!. . . وخنقتها غصة!.

لقد وثقت ببيرس، فغدر بها بقسوة وفظاظة!.

أصبحت تحمل دفتر شيكات بلا رصيد، وهي المسؤولة! لم يكن لديها عقد أو ضمانات مكتوبة. . لا شيء يمكن أن يسندها أمام القانون، حتى ولو وجدوا بيرس.

لقد رتب كل شيء بتلك الطريقة، وقد وافقت لأنها كانت تحبه،

وستكلفها سذاجتها كل شيء!.

هذا لا يعني أن أحداً لم يحذّرها. فزيلدا لم تكن سعيدة بهذا المشروع الذي سيستنفد كل وقت أدريان وطاقتها. كانت قد اعترضت قائلة: «لن ينتظر الزبائن إلى حين تنتهين من المنزل «غرانج». إنهم سيذهبون إلى مكان آخر.. ثم علينا ألا نضع كل بيضنا في سلة واحدة بهذا الشكل!».

لكن أدريان أرادت أن تتفرغ للعمل في إصلاح «غرانج»، لأنه سيصبح بيتها، ولم تشأ الاستماع إلى آراء أخرى تفسد عليها الجوّ الشاعري الرائع الذي خلقته لنفسها. واعتصر قلبها الألم. اتجهت إلى المطبخ كإنسان آلي، ووضعت إبريق القهوة على النار. إنها بحاجة إلى قهوة ثقيلة ليصفو رأسها. كانت بحاجة إلى معرفة جميع الالتزامات التي تعهدت بها.

عليها أيضاً أن تعود وتواجه السيد دافيدسن في البنك، وكذلك مدير المصرف الذي تتعامل معه، وتحاول الحصول على تسهيلات لسحب مبلغ زائد عن الرصيد، أو قرض آخر.. ومن ثم تبدأ بالعمل للخروج من متاعبها. ابتلعت ريقها، مدركة مبلغ مشقة العمل الذي عليها أن تنجزه.

ولكن عليها أن تبدأ من مكان ما... أن ترى إذا كان بإمكانها إنقاذ شيء قبل أن تسمع زيلدا والآخرون الإشاعات التي ستنتشر حتماً. إنهم يعتمدون عليّ، ولا أستطيع التخلي عنهم!.. هكذا أخذت تفكر حابسة أنفاسها بتشنّج.. وأحضرت قلماً ودفتر ملاحظات ثم أخذت تدوّن.

* * *

بالرغم من مظهرها الشجاع، مدعّماً ببذلة عمل وحقيبة أوراق، فقد تحققت، بعد ظهر ذلك اليوم، أسوأ مخاوفها. أخبرها مدير مصرفها، أنه لن يتمكن من إعطائها قرضاً آخر. كما تنهد السيد دافيدسن وهو يخفض بصره، سائلاً إياها بأي شكل ستسدّد قرضها الحالي. والأسوأ من ذلك أن كلاهما نصحاها باللجوء من دون إبطاء إلى خبير في شؤون الإفلاس!.

إلى ذلك كله، ذكّرها الرجلان بأن المنزل «غرانج» قد أصبح الآن مملوكاً «للشركة هادن للتطوير» وأن عليها وضع مشاعرها الشخصية جانباً

وتسليم المفتاح إلى مكتب محامي السيد هادن، في شارع «هاي ستريت».

وهكذا، لم يكن ثمة مهلة. وستمضي الأمور حسب ما هو مخطط لها. عندما صعدت إلى سيارتها «الجيب» كانت ترتجف في داخلها، وتشعر بألم في عضلات وجهها لطول تشنّجها.

خلال ساعات قصيرة، تحوّلت من فتاة سعيدة مسيطرة على حياتها، ذات عمل ناجح ومستقبل مع رجل تحبه، إلى ما يشبه دمية غريبة الشكل تتحرك بخيوط يتحكم بها الآخرون. أسوأ ما في الأمر، أن كاي هادن هو ذلك الشخص الذي يمسك بالخيوط. وكانت هذه الحقيقة تثير الغثيان في نفسها.

في كل مرة قابلته، كان يجلب معه الأذى. ما الذي أعاده؟ هذا ما لم تفهمه. إن ذكرياته عن «غرانج» لا يمكن أن تكون سعيدة. ابن مدبّرة المنزل الذي أرسل إلى مدرسة داخلية لأنه تركها في مكان مهجور فوق شجرة... ثم تمّ طرده من المنزل إلى الأبد لسرقته عقدها الثمين.

أتراه يحاول الانتقام، ولو بعد حين، من «أنغس ستريتون» الذي طرده من المنزل، ثم طرد أمه من عملها بسببه، وهي التي أمضت سنوات طويلة تخدمه بأمانة وصبر؟ إذا كان الأمر كذلك، فهو يتعلق بمرض نفسيّ حقيقي! هكذا أخذت تفكر وهي تضم ذراعيها حولها كأنما تحمي نفسها.

لكنه انتقام شامل كاسح، هذا الذي يقوم به! فقد انتزع من بيرس ميراثه، وهي... هي الآن تواجه الإفلاس!. وتذكرت سخريته بالنسبة إلى دائنيها، مدركة أنه يعلم جيداً ما يفعل. لقد عاد السارق لصاً رفيع المستوى، وهذه المرة سرق حياتها بأكملها!. تمنت لو تهرب وتختبيء في مكان فلا يعثر عليها أحد. ولكن ذلك غير ممكن!. عليها أن تكون قوية! أن تثبت في مكانها وتكافح بأي سلاح تحصل عليه!.

ولكن عليها أيضاً أن تقول لغرانج: وداعاً! ما زالت غير قادرة على تقبّل هذه الخسارة الشخصية، إنما عليها مواجهة الأمور في أسرع وقت. عليها أن تعترف بأن بيرس قد هجرها وتزوج امرأة أخرى، أن تتحمل

الأقاويل التي لا مفرّ منها وكذلك الظنون. إن سكان المدينة لطفاء، لكنهم بشر، وسقوطها شيء مثير!.. هذا بالإضافة إلى استياء العاملين في اصلاح المنزل وما تدين به لهم من مال.

أخذت عهداً على نفسها بأنها ستسدد لهم أموالهم مهما كلّف الأمر... ولو أمضت حياتها في ذلك.

تلك الحياة التي امتدت أمامها كئيبة خاوية كالصحراء، وخطرة مثلها! وخفق قلبها وجلاً من هذه الصورة!.

* * *

بدا المنزل «غرانج» في شمس العصر، رائع الجمال. ابتلعت أدريان ريقها، وباغتتها غصة حين توقفت بسيارتها إلى جانب المنزل، ثم شعرت بالارتياح عندما لم تر سيارة أخرى قريبة لكنها نصحت نفسها بألا تكثر النظر إلى الأشياء لئلا تُستثار مشاعرها... لا وقت للمشاعر الآن! عليها فقط أن تحضر أشياءها ثم تخرج ما دام الوقت مناسباً.

عادةً كانت تشعر بالزهو وهي تدخل المنزل، مجتازة الردهة الفسيحة، صاعدة السلم المصنوع من خشب السنديان، لشعورها بأن كل هذا هو ملك لها. لكنها اليوم لم تستطع أن تشعر ولو بشيء من الرضا عن كل ما فعلت.

ذلك لأن كاي هادن لم يُصادر المنزل فقط، وإنما صادر عصارة روحها وقلبها التي أفرغتها فيه... وكل حبها.

وتملكها الأسف لعدم تمكنها من هدمه حجراً حجراً، بيديها هاتين، وترك هادن مع كومة من الحجارة والأخشاب!.

سارت ببطء إلى الباب الجانبي، ثم وقفت لحظة، محاولة السيطرة على أنفاسها المضطربة. كان المفتاح في يدها، فماذا تنتظر؟ إنها بحاجة إلى الدخول. لتنهي كل شيء، ثم تخرج إلى غير رجعة.

لكنها استدارت فجأة، وركضت متعثرة. مرت بجانب الفناء، حيث وقف كاي هادن ذلك الصباح، وتوجهت إلى الممر المرصوف المؤدي إلى فسحة كانت يوماً حديقة مطبخ مسوّرة وأصبحت الآن أشبه بدغل.

أغمضت عينيها لا تريد أن تتذكر تلك الخطة التي كانت وضعتها لتحويل هذه النباتات الطفيلية إلى جنينة خضراء منسقة. ثم تابعت جريها إلى أن بلغت البوابة المؤدية إلى الغابة.

مضى وقت طويل منذ كانت هنا آخر مرة. فقد تعمدت أن تتجنب هذه الناحية مدة ستة عشر عاماً. أما الآن، وهي تواجه أعنف أزمة في حياتها، فهي بحاجة إلى مواجهة خوف طفولتها القديم والتغلب عليه.

كانت تبحث عن شجرة السنديان الوحيدة... وهي شجرة عتيقة ضخمة متباعدة الفروع كان يقوم عليها «العرزال». وعاد إليها صوت بيرس: «أين ذهب ابن الخادمة ذاك؟! أين يختبىء؟ هل تعلمين؟».

وبلهفة لإرضاء ذلك الفتى المتألق بشعره الأسود، في زيارته الأولى لخاله، أجابته قائلة: «نعم... سأريك مكانه». بينما كانت تعلم، شاعرة بالذنب، أنه ما كان لها أن تفعل ذلك، لأنه لم يكن سرّها هي لكي يحق لها كشفه.

حدّقت لحظة في فروع الشجرة، فظنت نفسها أمام شجرة مختلفة. كانت مقتنعة بأن الزمن سيعود إلى الوراء، وأنها ستجد نفسها عادت طفلة في التاسعة، ببنطلون قصير وقميص مقفل، وضفيرتين وهي تنظر بشوق إلى ذلك البيت الخشبي، بيت الشجرة الذي كان مخبأ كاي.

ثمة سلم خشبي عتيق كان على الدوام مسنداً إلى جذع الشجرة. بعد ذلك يتسلق الشخص خلال الفروع فيصل إلى العرزال. كان له ما يشبه السقف، وثلاثة جدران مصنوعة من فضلات الأخشاب، لكن أدريان كانت تراه مكاناً سحرياً. قصراً أسطورياً يمكن أن يحدث فيه كل شيء. كانت تعلم أن كاي غالباً ما يجلس هناك ليراقب الطيور، فقد جعلها ذات مرة تنظر من خلال منظاره المكبّر، لكنه كان يجلس أحياناً للقراءة أو لمجرد التفكير. وكان يحتفظ هناك ببعض الكتب، ودفتر للرسم وعلبة بسكويت.

سألته ذات مرة: «أليس مضحكاً أن تبقى هنا وحدك؟».

فكان أن نظر إليها مفكراً، وقال من دون أن يبتسم: «شيء حسن أن

يكون الشخص وحده أحياناً».

لم تفهم أدريان، حينذاك ما كان يعنيه، ولا بد أن ذلك بدا على وجهها، لأنه ضحك فجأة ومدّ يده يجذب ضفيرتها برفق: «هل هو أمر فظيع، يا آدي، ألا يكون معك أحد تتحدثين إليه؟».

فقالت وهي ترتجف، حين تخللت النسائم أوراق الشجرة فجعلتها تئن: «أنا أكره ذلك! سأخاف إذا كنت هناك وحدي».

أخذت تفكر في أنها، بقولها هذا، قد وضعت السلاح في يده فاستعمله ضدّها. استعمله ليعاقبها، بلا رحمة... بلا تسامح.

لم يعد يوجد سلّم الآن، أو لوح خشبي، ولا سقف. لا أثر لتلك الفتاة الصغيرة التي ركعت هنا باكية طوال وقت لا نهاية له، مقتنعة بأنها ستترك وحدها منسية! إنها مجرد... شجرة!.

وأتاها صوته هادئاً: «لقد مضى وقت طويل، يا آدي! لقد أمر «أنغس» البستاني أن يفكك البيت الخشبي ويحرقه في العراء، وكان عليّ أن أنظر إليه وهو يحترق!».

استدارت إلى الخلف، رافعة يدها إلى فمها: «ماذا تفعل هنا؟!».

لم تكن سمعته وهو يقترب حتى تكلم. فقال: «ذاكرتك ضعيفة! فأنا صاحب البيت الآن. هل نسيت؟».

وأخذ يتأملها، مستوعباً بذلتها الرصاصية اللون وقميصها الأبيض.

ـ ماذا حدث لفتاة هذا الصباح المفرطة في التفاؤل؟!.

ـ لقد كبرت الفتاة المفرطة في التفاؤل... بسرعة. كنت أعني كيف علمت بوجودي هنا؟ فأنا لا آتي إلى هذا المكان على الإطلاق!.

ـ رأيت سيارتك «الجيب»، كانت الأبواب لا تزال مقفلة، فكان أن... تبعت غريزتي!.

رأت أنها فعلت الشيء نفسه، فشعرت بالضيق، رفعت رأسها: «المعذرة إذا كنت تعديت على أملاكك! جئت لكي... جئت لآخذ أشيائي!».

نظر حوله رافعاً حاجبيه: «هل كنت مخيّمة في الغابة؟ يا لك من مغامرة!».

ـ ليست أشيائي هنا إنما في المنزل... سأذهب لأحضرها، إذا لم يكن لي ذلك بأس.

فهز كتفيه: «اعتبري نفسك ضيفتي».

ابتسمت ببرود: «أظنها ضيافة طالت كثيراً!».

فقال ببطء: «في الحقيقة، أنا هنا في بيتي منذ أسبوع تقريباً».

ابتلعت ريقها، مرغمة ساقيها على السير عائدة في الطريق ذاته: «هل تم البيع منذ وقت طويل، وأنا لا أعلم؟ أظنّه حدث في البرتغال؟».

ـ لا! كنت في لندن وكذلك بيرس. لقد جاء ليوقع أوراق البيع قبل أن يرحل إلى البرازيل.

بقيت لحظة لا تستطيع الكلام، عاجزة عن الحركة أثناء استيعابها هذه الصدمة الأخيرة.

كان بيرس إذن في إنكلترا من دون علمها!. كان هناك.. ولم يخبرها!... شعرت بغصة، وكادت ترفع يديها إلى السماء ضارعة شاكية.

كان كاي يتأملها بإمعان. ثم قال: «يبدو أنه لم يتصل بك!».

كان هذا تقريراً لواقع وليس سؤالاً. فقد كان «كاي» قادراً على تصور صدمتها ومبلغ يأسها لأنه، هو بالذات، يعلم وحشية مثل هذا الخداع.

انتصبت أدريان في وقفتها، ثم عادت تسير وهي تقول: «هذا مفهوم! إذ قد يكون تأثير ذلك عليّ سيئاً للغاية. حين أعلم أن حبيبي هجرني بعد أن أثقل كاهلي بجبل من الديون. لهذا، من الأفضل له أن يدعني أعلم ذلك من شخص آخر عندما يكون هو بعيداً وفي مكان آمن.. وأظن البرازيل مكاناً آمناً! هذا إلى أنه يعلم مبلغ سرورك عندما تخبرني بالأمر شخصياً».

فلوى شفتيه: «إن لديك فكرة غريبة عما أراه مبعث سروري. لكنني أؤكد لك يا آدي، أنني لا أعتبرك من اللواتي يستسلمن للبكاء والشكوى».

فقالت من فوق كتفيها: «امنحني وقتاً! فأنا أخطط للشكوى على

المستوى الدولي. هلاّ تفضلت بشراء تذكرة سفر لي؟ يبدو أنني سأحتاج إلى كل قرش يمكنني الحصول عليه. . ليس عليك أن تلحق بي الآن، فأنا لا أنوي نهب المكان!».

أضافت ذلك بلهجة عدائية، فقال: «لا تكوني متشكّكة بهذا الشكل! كل ما في الأمر هو أن اتجاهنا واحد».

فقالت بقوة: «لا، لا! لا الآن، ولا غداً! هل يمكنك الانتظار في مكان ما، من فضلك إلى أن أجمع حاجياتي؟ سأبتعد عن وجهك بعد ذلك!».

ـ آسف! فأنا أريد التفرج على البيت، لأرى ما استُحدث فيه.

ـ كل شيء موجود على شاشة الكمبيوتر. سأرسل لك نسخة.

ـ قد يكون هذا مفيداً.

وكان الآن يسير بجانبها، وكان الممر ضيقاً، فكان من الصعب تجنب الاحتكاك به: «لكنني أفضل جولة مع الشخص المسؤول لأسمع منه تفاصيل سير العمل والتجديد».

توقفت وهي تشهق غاضبة. لقد كانت جددت المنزل لأجل بيرس ولأجلها! وقد استودعت تفصيلاته الحميمة كل آمالها وأحلامها، وهي لا تريد أن يشاركها فيه أي متطفل. شعرت وكأنه طلب منها أن تتعرى!.

قالت بانفعال شديد: «لديّ فكرة أفضل: استأجر فرقة تصميم أخرى، وكلفها بوضع اللمسات الأخيرة المتبقية. وبإمكانك بيعه كما هو الآن، إذا أردت ربحاً سريعاً».

نظر إليها بعينين شبه مغمضتين: «ما الذي جعلك تظنين أنني سأبيعه؟».

إنه مارك، المحاسب في مكتبها! فقد سبق أن اتصلت به وسألته عما يعرفه عن شركة «هادن للتطوير». علمت منه أن كاي شخص يحب التنقل والتغيير، فعمله ـ كما قال ـ هو البحث عن مشاريع الأبنية التي تعاني من صعوبات مالية، فيشتريها ثم يكمل إصلاحها ليعود فيبيعها. وهو متفوق في هذا المجال. وعندما استفهم مارك آنذاك عن سبب سؤالها، أجابت

متظاهرة بعدم الاهتمام: «آه، لقد ذكر بعض الأشخاص اسمه. . هذا كل شيء!».

ضحك مارك وقال: «أصديق هو أم عدو؟ . . . إنه في الواقع رجل جيد إذا كان بجانبك، وسيّء إذا كان خصماً لك. إنه، على العموم، نشط ومتحمّس».

ـ شكراً لتحذيرك هذا!.

. . . وأضافت في سرّها: «كل ما في الأمر أن هذا التحذير تأخر ستة عشر عاماً!».

عادت تنظر إلى غريمها كاي هادن: «لأن هذا هو عملك! تدخل المكان، تنظم الأمور فيه ثم تتركه إلى مكان آخر!».

ـ ليس دائماً، وليس هذه المرة؛ لأنني سأسكن فيه.

ـ لكنك لا تستطيع!.

أفلتت هذه الكلمات من فمها رغماً عنها.

ـ وما المانع؟.

أجابت متذكرة قول مارك: «لأن لديك بيتك الذي تعيش فيه بجانب نهر التايمز، ومنزلاً ريفياً في «سافولك»».

ـ أراك تحفظين درسك جيداً!.

قال ذلك بلهجة تنمّ عن سخرية، فهزت كتفيها قائلة: «يقال إن ابن البلد ناجح. . حتى ولو كان ابن مدبّرة المنزل!».

فقال ساخراً: «بل خصوصاً إذا كان ابن مدبّرة المنزل!».

حملقت فيه ثم تابعت سيرها. وعندما عاد إلى الكلام، كان صوته هادئاً: «أسفت كثيراً عندما سمعت بوفاة أبويك، يا آدي. إنني أعرف مقدار محبتكم لبعضكم بعضاً».

فقالت بتوتر: «يبدو أنني لست الوحيدة التي تحفظ درسها جيداً!».

ثم تابعا بقية سيرهما نحو المنزل بصمت. أمام المدخل، وقفت أدريان وتنفست بعمق: «إذا شئت معاينة المكان بمفردك، يمكنني العودة في يوم

آخر لأخذ أشيائي».

ـ لا، بل خذيها الآن. . . هذا إذا كنت مصممة على عدم مرافقتي في الجولة.

ـ نعم، أنا مصممة على ذلك!.

ـ ألا تريدين أن تتباهي بإنجازك؟.

فهزت كتفيها: «الحقيقة أنني لا أشعر الآن بأي نوع من الانتصار. أنت الخبير في هذه الأمور ولست بحاجة إلى من يلفت نظرك».

ـ من عادتك أن تحبي المرافقة!.

ـ هذا يعتمد على من أرافقه. سأخرج بنفسي عندما أنتهي من جمع أشيائي.

في الداخل، اتجهت رأساً إلى السلم، ومن ثم إلى الغرفة التي كانت تستعملها. لم تكن حاجياتها كثيرة، وسرعان ما ملأت حقيبتها. كانت تقفلها عندما ظهر كاي عند العتبة.

ـ إذن كنت قد اخترت هذه الغرفة؟!.

ونظر حوله رافعاً حاجبيه بسخرية وهو يرى السرير الصغير النقّال: «كنت أظن أن الغرفة الرئيسية في المنزل هي المكان المفضل بالنسبة إلى عاشقين!. ألا ترين هذا السرير ضيقاً عند العواطف المحمومة؟ أم أن بيرس يفضّله هكذا. . .؟».

التهب وجهها غضباً: «أيها النذل! أنت لا تعلم شيئاً عن أمرنا. . لا شيء! أنا وبيرس كنا خطيبين!».

نظرَ إلى يدها اليسرى الخالية من الخاتم: «أحقاً؟! حسناً، على الأقل ليس عليك أن تعيدي الخاتم!».

ساد الصمت لحظة، قالت بعدها بصوت أجش: «هذا قول لا يمكن الصفح عنه!».

ـ نعم! ولكن ما أكثر الأشياء التي بيننا، يا حلوتي، التي لم يُصفح عنها، وغير القابلة للصفح!.

اختطفت حقيبتها وسارت نحو الباب الذي ما زال يسده بجسمه، فقالت: «هل لك أن تسمح لي بالمرور، من فضلك؟».

ـ انتظري لحظة. إن لديّ ما أعرضه عليك.

رباه. . . إنه سيطلب مني متابعة إصلاح البيت! هذا ما ظنته. لكنها سترفض، بطبيعة الحال. إن استمرارها في العمل هنا سيحطم قلبها، مع كل ما قد يحدث. . ولكن، إذا وافقت على ذلك فستطلب منه أجراً يمكّنها من دفع ما عليها للمتعهدين.

هل بإمكانها حقاً رفض مثل هذه الفرصة؟ قالت بفتور: «حسناً!. . . ماذا عندك؟».

وقبل أن تتكهن بما سيفعل، أو تتجنبه، اقترب منها وهو يتفحصّها بنظرات غير بريئة، ثم قال برقة: «هذا حسن جداً! ممتاز تماماً!. إنك في الواقع، أصبحت رائعة الجمال، يا آدي!».

ـ لا تنادني بهذا الاسم!

ودفعته عنها بخشونة:

ـ كما أنني لا أريدك أن تقترب. . لا حقّ لك بذلك!.

لوى شفتيه، قائلاً بالفرنسية: «حتى ولا حق «السيد»؟».

ـ إنك اشتريت المنزل، لكنني لم أكن ضمن الصفقة! والآن، دعني أمرّ!.

فقال دون أن يتحرك من مكانه: «هذا فقط لأن بيرس لم يفكر في الأمر. ولكن بما أنك أثرت الموضوع، يا أدريان، ما هو الثمن الذي تريدينه مقابل خدماتك؟».

فقالت ببطء، لا تكاد تجرؤ على الأمل: «هل تعرض أن تدفع أجر العمل الذي أنجزته؟».

أجاب بلهجة مطاطة: «هذا يتوقف على الظروف. لقد خطر لي أن هذا المنزل ينقصه شيء ما. . .».

أخذت نفساً عميقاً، متجاهلة قصده: «تعني أنه لم ينته تماماً؟ لكن ذلك

www.elromancia.com

لن يستغرق وقتاً طويلاً. . .».

ـ كلا! ليس هذا ما عنيته على الإطلاق!

ـ ماذا إذن؟.

قالت ذلك، كارهة طريقة تحديقه في عينيها. ومع ذلك، ولأمر ما، لم تستطع تحويل عينيها بعيداً، أو الابتعاد عنه.

قال بلطف: «إنه يحتاج إلى من يطرد وحشته، وكذلك أنا! وأنت، يا حلوتي أدريان، المرشحة الممتازة لذلك. وهكذا يمكننا أن نعقد اتفاقاً بيننا، ما رأيك لو نتزوج؟».

***

٣ ـ صفقة مجنونة

ـ هل هذا نوع من المزاح الثقيل؟.

ـ وهل تربنني أمزح؟.

ابتلعت ريقها. كانت العينان الرماديتان تحدقان في عينيها، باردتين متحديتين. . . إلى حد الوقاحة. الفم الحازم غير باسم أيضاً. . لا. . كان يبدو جاداً في كلامه، وبشكل مذهل، لا يُصدَّق!.

ـ إنك بهذا تذر الملح على الجراح!.

وحاولت أن تبتسم، لكن الابتسامة هربت من شفتيها: «لم تنضجك السنوات، يا كاي! ما زلت كما كنت!».

فابتسم: «على كل حال، أرى نفسي ذلك الفارس القادم على حصان لإنقاذك».

ـ ويا لها من شهامة!

ـ كلا! بل أنا رجل أعمال، وتدّعين أيضاً أنك سيدة أعمال. وأنت في متاعب مالية. فأنا إذن، أقدم إليك حبل النجاة.

عضت أدريان شفتيها، ثم قالت بحزم: «على السيد داڤيدسن أن يكون حذراً في كلامه عن زبائنه».

ـ السيد داڤيدسن لم يخبرني بشيء. لم يكن بحاجة إلى ذلك، لقد أحسست بذلك حال وصولي. وعندما كنت هنا صباح هذا اليوم رأيت متعهدي دهان وكهرباء يعودان بشيكات رفض البنك صرفها، فأدركت أنك

www.elromancia.com

تواجهين متاعب خطيرة.

فرفعت رأسها: «حتى ولو كان الأمر كذلك، يمكنني تدبّر أموري من دون خدماتك النبيلة لإنقاذي!».

قال بلطف: «أتمنى لك النجاح إذن! لكنني أرجو ألا تعتمدي على حوالة مصرفية تأتيك من البرازيل! الأفضل لك أن تعتمدي على ورقة «اليانصيب الوطني»».

قالت بغضب وانفعال: «يا لك من وغد! لقد حصلت على كل ما تريده، أليس كذلك؟ إنها متعتك في ساعة الظفر هذه!».

ـ لقد انتظرت طويلاً. لكنهم يقولون إن الانتقام طبق من الأفضل أكله بارداً!.

ـ أرجو أن يُسِئك! والآن دعني أخرج من هنا!.

ابتعد عن عتبة الباب قائلاً بلين: «إنك غير سجينة».

ـ لا، ولا أريد أن أكون!.

ـ أتظنين أنني أريد اتخاذك عبدة؟ يا لمخيلتك الخصبة، يا عزيزتي!.

ـ إياك أن تجرؤ على الضحك مني!.

وارتجف صوتها، فقال: «لن يغير ذلك سوى القليل جداً في حياتك. وبعد، فأنت تعيشين هنا فعلاً!».

ـ كانت إقامة مؤقتة.

فقال بلهجة حازمة: «وستصبح إقامة دائمة.. وستسددين ديونك، بالإضافة إلى إطلاق يدك في إصلاح المنزل كما تريدينه بالضبط، مع وجود خدم تحت تصرفكِ. ستديرين أعمالك باستقلال تام. وعندما يأتي ضيوف، ستكونين أنت زوجتي ومضيفتي».

فسألته ساخرة: «وهل هذا كل شيء؟».

ـ لا! إن عملي يقتضي مني السفر إلى الخارج كثيراً وأريد أن ترافقيني أحياناً، ولكن ليس دائماً. هل جواز سفرك صالح؟.

قالت وهي تحدق فيه: «طبعاً! ولكن حديثك غير عقلاني على

الإطلاق»!.

ـ قبل البدء بأي مشروع، أحب أن أضع القواعد. عندما أكون مسافراً، تكونين حرة في الدخول والخروج كما تريدين، وفي استضافة أصدقائك.

ـ يبدو هذا أجمل من أن يصدّق، وستعود بعد أن تنتهي رحلاتك تلك!

ـ طبعاً!

وابتسم بفتور فقالت: «وما الذي تتوقعه بالضبط مقابل ذلك؟».

ـ أنت لم تعودي طفلة، يا أدريان.

وبدا في صوته خشونة مفاجئة: «ولا مراهقة شاعرية العواطف تحلم بالحب الأول! أتوقع منك أن تلتزمي بالزواج كاملاً».

ـ أنت تشعرني بالغثيان.

فقال ببطء: «ذات يوم، لم يكن هذا الشعور يتملكك!».

فتصلّب جسمها: «ماذا تعني؟».

ـ كان ذلك يوم مولدك الثامن عشر. وكنت تبدين وكأن شخصاً أشعل نجوماً خلف عينيك. تمنيت لك أعياداً كثيرة سعيدة قادمة، فاندفعت إلي عابرة القاعة، والفرحة تغمرك لرؤيتي... أم أنك نسيت ذلك؟.

صمتت لحظة ثم قالت: «كان ذلك ومنذ وقت طويل!».

فقال برقة: «آه، إنك تتذكرين إذن؟!».

ونظر في وجهها نظرة تأمل واستذكار.

قالت بصوت خافت: «قبل أن أكتشف أيّ لص مخادع كنت!».

فكر قليلاً ثم قال بتبرُّم وضجر: «أوه.. لا يجوز أن تبدأ علاقتنا الجديدة بمثل هذه الأوهام والتداعيات.. هذا لا يبشر بالخير بخصوص مستقبلنا. ألا تعتقدين ذلك؟».

ـ إنك لا تريد أن تعلم ما أعتقد. شكراً لك! ليس لي مستقبل هنا.

ـ كيف تفسرين هذا الأمر؟.

فبسطت يديها. وعندما أدركت أن ثمة دليلاً على الضعف في تلك

الإشارة، تركتهما تتدليان إلى جانبيها: «قلت إن بإمكاني أن أعيش حياتي، ولكن هذا هراء إن أصبحت زوجتك».

فقال بضجر: «كوني واقعية! فأنت لست من العصر الفيكتوري. .

ـ إن القبول بما تعرضه عليّ كالقبول ببيع جسدي.

ـ أنت لم تمانعي في بيع نفسك لبيرس مندوزا وها أنا أعرض عليك عرضاً شريفاً.

فانفجرت في وجهه غاضبة: «أيها النذل!».

ورفعت يدها تريد أن تصفعه، لكنه قبض على معصمها بقسوة، قبل أن تصل كفها إليه، ثم قال بشيء من التجهم وهو يتركها: «أرى أن الزمن لم يلطف من طباعك! دعي النيران خامدة، يا أدريان، ولا تعتمدي على أنوثتك، فهذا لن ينفعك!».

أخذت تفرك معصمها وهي تنظر إليه باستياء: «ولكن ذلك ما تريده مني!».

ـ أريد ذلك بهدف شريف.

ـ ولكنني غير مستعدة أبداً للقبول بعرضك الشريف هذا. أرفض أن تشتريني تحت عنوان «الزواج». اشترِ امرأة أخرى تشاطرك حياتك لأنني أقول لك: «اذهب إلى جهنم».

قالت ذلك بغضب بالغ. فهز كتفيه من غير انزعاج: «هذا من حقك، يا آدي! اذهبي وتحرّي أي طريق يعجبك. ولكن لا تدهشي إذا وجدتها جميعاً تعيدك إليّ!».

ـ أنا واثقة من أنك تحب أن تظن ذلك، ولكن إذا كان عليّ أن أذل نفسي وأحقّرها، فإنني أفضل القيام بذلك على طريقتي الخاصة.

ـ كما تشائين!

وسكت لحظة: «إن عرضي هذا يبقى قائماً، ولكن إلى وقت محدود. وهكذا، إذا شئت تغيير رأيك، فلا تنتظري طويلاً لكي تخبريني. . إن عنواني هو في «كينغز آرمز».

فسألته بازدراء: «أتتسكع في فندق، يا سيد هادن؟! ظننت أن من يستولي على هذا البيت سينزل فيه على الفور».

تجاوزتها نظراته إلى السرير النقّال المتواضع المركون تحت النافذة، ثم رفع حاجبيه ساخراً: «على هذا السرير، يا عزيزتي؟! إنني أفضل سريراً يمكنني التحرك فيه».

ونظر إلى الاحمرار المفاجىء الذي كسا وجهها، ثم تبسّم برقة: «سأنتظر اتصالاً منك».

فرفعت رأسها تجيبه بسخرية مماثلة: «ستنتظر طويلاً!».

ثم خرجت من الغرفة. . . فناداها: «ستعودين!».

ـ أبداً!

ـ ولو لتأخذي هذه الحقيبة التي اعتنيت بملئها.

التفتت إليه فرأته يحملها لاوياً شفتيه ساخراً: «خذي!».

وألقاها إليها فتلقّتها بحركة تعوزها الرشاقة، ثم رمقته بآخر نظرة سخط قبل أن تستدير متوجهة نحو السلم وهي تفكّر: «سيري باعتدال. .».

أخذت تحدث نفسها وهي تسير في الردهة: «لا تدعيه يظن لحظة واحدة أنه هزمك».

مع كل شجاعتها تلك، كانت ترتجف وهي تصعد إلى سيارتها «الجيب». جلست متشبثة بالمقود كي تستعيد السيطرة على نفسها، إلى أن شعرت بالألم في يديها. لا بد أن هناك شيئاً يمكنها عمله! رباه، أرجوك أن تدلني على شيء!.

عليها أن تجد مخرجاً لها بأي شكل. . . مخرجاً للهرب. ولكن عليها أولاً أن تدير محرك سيارتها وتبتعد قبل أن يجدها كاي لا تزال جالسة بهذا الشكل وكأنها استحالت إلى حجر.

* * *

قادت سيارتها إلى بيتها بجهد بالغ مركزة على الطريق. ولم تشعر

www.elromancia.com

بالانفراج إلا عندما وجدت نفسها توقف الجيب قرب كوخها. عندما أطفأت المحرك، خرجت من غرفة العمل مجموعة صغيرة من النسوة ومررن بجانبها وهن يتحدثن ويضحكن. وعندما رأينها لوّحن لها بمودة.

قريباً جداً، سيكون عليّ أن أخبرهن أنهن أصبحن من دون عمل..

أخذت أدريان تفكر في ذلك بمرارة وهي ترفع يدها لهن بالتحية. وعندما نزلت من السيارة، رأت كرة قدم تتجه نحوها، وابن زيلدا يركض خلفها وقد توهج وجه الصغير الشاحب نوعاً ما.

ـ آدي، آدي! سيكون عندنا جرو صغير! قالت ماما إننا سنذهب لإحضاره في عطلة الأسبوع.

توقفت أدريان، مرغمة شفتيها الباردتين على ما يشبه الابتسامة. ثم قالت: «حسناً، هذا رائع!».

كانت زيلدا قد سألتها بتردد، منذ أسبوعين، عما إذا كانت تمانع في أن تقتني كلباً، قائلة باكتئاب: «كيفين يجب أن يكون له كلب، وكذلك أنا. عندما كنت صغيرة، لم يسمح لي والدي باقتناء أي حيوان مدلل».

فقالت أدريان على الفور: «أظنها فكرة رائعة».

وأخذت تفكر باكتئاب أنّ عليها التحدث إلى زيلدا حالاً، وإخطارها بأنها قد لا تستطيع الاستمرار في الإقامة هنا.

كان باب زيلدا مشقوقاً وهكذا قرعته أدريان ثم أخذت تنظر إلى الداخل، تشمّ عبق القهوة. كانت زيلدا تقطع الخضر على مائدة المطبخ فرفعت بصرها بابتسامة عريضة، ترحب بها.

ـ مرحباً.. رأيت ابني يتحدث إليك. هل ما زلت موافقة على استحضار الجرو؟.

أشارت إلى أدريان بالجلوس، ثم وضعت على المائدة فنجانين وتفقدت ابريق القهوة.

كان المطبخ دافئاً مريحاً. أخذت أدريان تفكر في ذلك وهي تنظر حولها. كانت زيلدا قد غطت أرض المطبخ بِبُسُط سميكة دافئة اللون، فيما

رسوم ابنها تأخذ مكان الصدارة على الجدران، وبعضها صور كلاب، ما جعل قلب أدريان يخفق ألماً.

وكانت زيلدا قد غيرت شكلها أيضاً. الشعر الأسود الطويل قصته، وارتدت بنطلوناً أسود، وتنورة قصيرة وضعت في جيبها معدات العمل. كانت تبدو في أحسن أحوالها، امرأة شابة مسيطرة على نفسها. ولكن ماذا سيحدث لهذه الثقة المستحدثة إذا أصبح لزاماً عليها أن تعود إلى بيت أسرتها المزدحم ذاك وتذمر أبيها الذي لا ينتهي؟!.

وماذا سيكون من أمر ابنها كيفين؟ لقد كان طفلاً منطوياً على نفسه عندما رأته أدريان لأول مرة، طفلاً محروماً من مكان للعب. لم يكن مسموحاً له باللعب في الحديقة لئلا يتلف أزهار جدّه التي يربيها بكل فخر واعتزاز. كل كلمة أو حركة من هذا الطفل كانت معرضة للتقييد والكبت!.

سألتها زيلدا وهي تحدّق فيها: «هل أنت بخير؟ إنك هادئة جداً!».

ابتسمت أدريان رغماً عنها: «لديّ الكثير في ذهني!».

فقالت زيلدا ضاحكة:

ـ هذا واضح. عليك أن تنهي المنزل «غرانج»... ثم تضعي خطة الزفاف. ولكن هل تستطيعين في هذه الأثناء أن توجهي اهتمامك بعض الشيء نحو «فندق وستبرورك»؟ لقد قبلوا عرضي لتجديد ستائر غرف النوم وأغطيتها. وهم الآن يفكرون في تجديد الستائر في قاعة الجلوس وغرف الطعام.

فقالت أدريان متمالكة نفسها: «هذا حسن. متى يريدون البدء بالعمل؟».

إذا أنجزت العمل هذا الخريف، كما ترجو، واستطاعت أن تنجز عملاً آخر بجانبه، قد تتمكن من تفادي مشكلة مع المتعهدين لفترة ما.

ـ إنهم يخططون لإقفال الفندق في شهري كانون الثاني وشباط، ثم يقيمون حفلة إعادة افتتاحه في عيد الفصح. سيكون في ذلك دعاية جيدة لنا!.

بالانفراج إلا عندما وجدت نفسها توقف الجيب قرب كوخها. عندما أطفأت المحرك، خرجت من غرفة العمل مجموعة صغيرة من النسوة ومررن بجانبها وهن يتحدثن ويضحكن. وعندما رأينها لوّحن لها بمودة.

قريباً جداً، سيكون عليّ أن أخبرهن أنهن أصبحن من دون عمل..

أخذت أدريان تفكر في ذلك بمرارة وهي ترفع يدها لهن بالتحية. وعندما نزلت من السيارة، رأت كرة قدم تتجه نحوها، وابن زيلدا يركض خلفها وقد توهج وجهه الصغير الشاحب نوعاً ما.

ـ آدي، آدي! سيكون عندنا جرو صغير! قالت ماما إننا سنذهب لإحضاره في عطلة الأسبوع.

توقفت أدريان، مرغمة شفتيها الباردتين على ما يشبه الابتسامة. ثم قالت: «حسناً، هذا رائع!».

كانت زيلدا قد سألتها بتردد، منذ أسبوعين، عما إذا كانت تمانع في أن تقتني كلباً، قائلة باكتئاب: «كيفين يجب أن يكون له كلب، وكذلك أنا. عندما كنت صغيرة، لم يسمح لي والدي باقتناء أي حيوان مدلل».

فقالت أدريان على الفور: «أظنها فكرة رائعة».

وأخذت تفكر باكتئاب أنّ عليها التحدث إلى زيلدا حالاً، وإخطارها بأنها قد لا تستطيع الاستمرار في الإقامة هنا.

كان باب زيلدا مشقوقاً وهكذا قرعته أدريان ثم أخذت تنظر إلى الداخل، تشمّ عبق القهوة. كانت زيلدا تقطع الخضر على مائدة المطبخ فرفعت بصرها بابتسامة عريضة، ترحب بها.

ـ مرحباً.. رأيت ابني يتحدث إليك. هل ما زلت موافقة على استحضار الجرو؟.

أشارت إلى أدريان بالجلوس، ثم وضعت على المائدة فنجانين وتفقدت ابريق القهوة.

كان المطبخ دافئاً مريحاً. أخذت أدريان تفكر في ذلك وهي تنظر حولها. كانت زيلدا قد غطت أرض المطبخ ببُسُط سميكة دافئة اللون، فيما

رسوم ابنها تأخذ مكان الصدارة على الجدران، وبعضها صور كلاب، ما جعل قلب أدريان يخفق ألماً.

وكانت زيلدا قد غيرت شكلها أيضاً. الشعر الأسود الطويل قصته، وارتدت بنطلوناً أسود، وتنورة قصيرة وضعت في جيبها معدات العمل. كانت تبدو في أحسن أحوالها، امرأة شابة مسيطرة على نفسها. ولكن ماذا سيحدث لهذه الثقة المستحدثة إذا أصبح لزاماً عليها أن تعود إلى بيت أسرتها المزدحم ذاك وتذمر أبيها الذي لا ينتهي؟!.

وماذا سيكون من أمر ابنها كيفين؟ لقد كان طفلاً منطوياً على نفسه عندما رأته أدريان لأول مرة، طفلاً محروماً من مكان للعب. لم يكن مسموحاً له باللعب في الحديقة لئلا يتلف أزهار جدّه التي يربيها بكل فخر واعتزاز. كل كلمة أو حركة من هذا الطفل كانت معرضة للتقييد والكبت!.

سألتها زيلدا وهي تحدّق فيها: «هل أنت بخير؟ إنك هادئة جداً!».

ابتسمت أدريان رغماً عنها: «لديّ الكثير في ذهني!».

فقالت زيلدا ضاحكة:

ـ هذا واضح. عليك أن تنهي المنزل «غرانج»... ثم تضعي خطة الزفاف. ولكن هل تستطيعين في هذه الأثناء أن توجهي اهتمامك بعض الشيء نحو «فندق وستبرورك»؟ لقد قبلوا عرضي لتجديد ستائر غرف النوم وأغطيتها. وهم الآن يفكرون في تجديد الستائر في قاعة الجلوس وغرف الطعام.

فقالت أدريان متمالكة نفسها: «هذا حسن. متى يريدون البدء بالعمل؟».

إذا أنجزت العمل هذا الخريف، كما ترجو، واستطاعت أن تنجز عملاً آخر بجانبه، قد تتمكن من تفادي مشكلة مع المتعهدين لفترة ما.

ـ إنهم يخططون لإقفال الفندق في شهري كانون الثاني وشباط، ثم يقيمون حفلة إعادة افتتاحه في عيد الفصح. سيكون في ذلك دعاية جيدة لنا!.

فقالت أدريان: «نعم. هذا صحيح!».

فقالت زيلدا وهي تحضر القهوة: «حسناً. لا تردي إذن الطلبات! هناك عالم حقيقي خارج المنزل «غرانج»، ونحن بحاجة إليه».

شددت أدريان من عزيمتها: «للأسف هناك... مشكلة!».

نظرت زيلدا إليها طويلاً، ثم أخذت تسكب القهوة بعناية، وهي تسألها: «هل هي كبيرة أم صغيرة؟».

ـ كبيرة إلى حد ما.

وأخذت أدريان جرعة كبيرة من القهوة تستمد منها القوة.

ـ لقد بيع المنزل «غرانج» إلى.. شركة لتطوير الأبنية يمتلكها «كاي هادن». وأظن أنه يخطط لهدم المنزل وإنشاء حديقة عامة مكانه!

مدت زيلدا يدها عبر المائدة تظهر تعاطفها: «آسفة يا حبيبتي! إنني أدرك الجهد الذي بذلته في هذا المنزل. ولا بد أنك تشعرين بالتحطم».

ثم سكتت لحظة وقد ضاقت عيناها: «متى أخبرك بيرس بذلك؟».

ـ إنه لم يخبرني. لقد ترك ذلك لكاي هادن نفسه.. ولمدير البنك!.

صدرت من زيلدا كلمة نابية حادة: «وأين بيرس الآن؟».

فأجابت أدريان بجمود: «في البرازيل. ويبدو أنه في شهر العسل. لا... لا أتوقع منه أن يتصل بي بعد الآن».

ـ آه، يا إلهي!.

ثم ساد صمت قصير مثقل: «حبيبتي، لن تصدقيني إذا قلت لك إنك أيسر حالاً من دونه. ولكن هذه هي الحقيقة. ثم، من هي المرأة الأخرى؟».

هزت أدريان كتفيها: «هي سيدة برازيلية غنية. وأظنه في ضائقة مالية».

ساد الصمت مرة أخرى، قالت زيلدا بعده: «هل الأمر من السوء كما يبدو؟».

ـ بل أكثر. لقد أوقف تحويل المال إلى البنك وهكذا أعاد البنك شيكاتي. وبما أن الحساب باسمي، يتوجب عليّ متابعة الدفع. وهكذا...

أفلست!.

امتقع وجه زيلدا وتلاشى لونه فلم يبق سوى بضع نقط من النمش حول أنفها. قالت: «والمالك الجديد؟ أليس مسؤولاً؟ ألا يستطيع أن...».

فمضت أدريان شفتيها: «كلا! كما أنهم أخرجوني من مشروع «غرانج» على كل حال. لكنه لن يهدمه، فهو يريد أن يسكن فيه».

وأضافت بابتسامة فاترة: «وبوجه عام، كنت أفضّل الهدم!».

فقالت زيلدا مفكرة: «كاي هادن! هذا الاسم مألوف لدي!».

حدقت أدريان في فنجانها ثم قالت: «كان يعيش في «غرانج» منذ سنوات. كانت أمه مديرّة منزل السيد ستريتون لفترة طويلة».

فقالت زيلدا ببطء: «لقد تذكرت الآن... كان يزور المدينة أحياناً. كان أشقر جذاباً، لكنه قليل الكلام».

فقالت أدريان بصوت فاتر: «يبدو أن قدرته على الكلام قد قويت بمرّ السنين».

ـ ولا بد أنك تعرفينه جيداً، ما دام كان يسكن في «غرانج» أثناء زياراتك للمنزل؟

فأجابت بتوتر: «نعم. ولكننا لم نكن.. صديقين قط!».

ثم تذكرت أنها، عندما كانت فتاة صغيرة، كانت متعلقة به كثيراً.. لقد كان مثلها الأعلى.

فقالت زيلدا بجفاء: «هذا مؤسف! كان من شأنه أن يساعدنا. ماذا سنفعل الآن؟ نبيع كل شيء ثم نبدأ من جديد؟».

فقالت أدريان بسرعة من دون تفاؤل: «آه، أرجو أن لا يصل بنا الأمر إلى هذا الحد. سوف أجد مخرجاً. لكنني شعرت من واجبي أن أخبرك قبل انتشار الشائعات».

فقالت زيلدا محاولة الابتسام: «نعم، شكراً يا عزيزتي!».

شعرت أدريان وكأن نوراً انطفأ في داخلها وهي تدخل المنزل منهكة.

وازداد حرجها حين رأت كيفين مندفعاً إلى الداخل وهو يثرثر عن كلبه، بينما وضعت أمه ذراعها حوله وأفهمته برفق أن عليه الانتظار قليلاً.

معظم الأطفال كانوا في مكانه، سيتصرفون بحدّة وانفعال.. لكن كيفين سكت بكل بساطة، وقد بان الصبر على وجهه الصغير. لكأن خيبة الأمل لم تكن شيئاً جديداً بالنسبة إليه!.

تملك الغضب أدريان. يجب ألا يكون الأمر بهذا الشكل! إنه لا يستحق ذلك، ولا زيلدا!.

لاحظت، من غير دهشة، أن جهاز المجيب الآلي في التليفون كان ضوءه يتعاقب بسرعة. إنها اتصالات من العاملين معها في المنزل، أو من المموّلين. كلهم يريدون أن يعلموا متى سيقبضون أموالهم.

لم تستطع أن تصدق كيف تحوّلت، في نظرهم، من زميلة ذات قيمة إلى عدوّ محتمل!.

دونت أسماءهم ووضعتها جانباً. لم يكن ثمة فائدة من الاتصال بهم قبل أن تجد حلاً مقبولاً. مثل هذا الحل غير موجود حالياً! وإذا كان موجوداً بالشكل الذي عرضه عليها كاي، فهي غير مستعدة للتفكير فيه!.

حاولت أن تقوم ببعض العمليات الحسابية، لكن مجموع الدين بدا مفزعاً! حتى لو استطاعت أن تبيع شركتها، بما في ذلك الكوخ والمباني الملحقة، إضافة إلى استعارة أموال زيلدا، فإن العجز سيبقى قائماً.

لقد تحطمت!... كلنا تحطمنا! وكل ذلك بسبب كاي هادن الذي عاد يفرض نفسه على حياتنا مستعملاً أمواله للحصول على ما يريد!.

وارتجفت وهي تلف ذراعيها حولها وكأنها تحمي نفسها. هتفت بصوت معذّب: «بيرس، لماذا لم تخبرني بأنك في أزمة مالية؟! كان بإمكاني التوقف عن العمل في المنزل. لماذا لم تحذرني؟...».

لكن الأمر لم يكن مجرد المال... ذكّرها بذلك صوت خافت في أعماقها. هناك خيانته لها في البرتغال! وهذا لا يمكنها، منطقياً، أن تلوم عليه كاي هادن رغم رغبتها في ذلك!.

إنه ذنب بيرس في التخلي عنها! لقد هجرها وخلاّها وحيدة ومفلسة، ثم تزوج امرأة أخرى من دون أن يكلف نفسه عناء إعلامها بالأمر!...

حتى هذه اللحظة، كانت تبدو وكأن عدم التصديق قد أعجزها عن الإحساس. وها هو الألم يهجم عليها كأمواج سوداء تشتّت أفكارها.

تلمست طريقها إلى كرسي بجانب المنضدة، ووضعت رأسها على خشبها، وأخذت تبكي بكاء متواصلاً. كل ما فيها كان مشدوداً متشنجاً تمزّقه شهقاتها المتتابعة.

أخذت تستعيد هدوءها، وبقيت مستقرة في مكانها دافنة وجهها بين ذراعيها. لكنّ رجفة كانت تعتريها من حين إلى آخر، وعندما وقفت كانت ساقاها ترتجفان.

عَزَتْ تلك الرجفة إلى كونها لم تأكل شيئاً منذ الفطور، وبدا لها أن ذلك الفطور إنما يعود إلى زمن بعيد، بعيد.

شعرت بالجوع، ولكنها نفرت من فكرة الطعام. كان جسمها متوهجاً ونفسها مشتتة، وقد خلّفت نوبة البكاء في فمها طعماً معدنياً. ملأت الإبريق ووضعته على النار ليغلي، ثم عادت فأدركت أن القهوة لن تكفيها وحدها وإنما هي بحاجة إلى شيء أقوى. مدت يدها إلى الرفّ وتناولت علبة صغيرة أخرجت منها حبّتين مهدئتين وابتلعتهما على عجل.

جلست في مقعد كبير قرب المدفأة، واتكأت إلى الخلف على الوسائد. في الخارج، كان ضوء النهار يتلاشى بسرعة، وكانت برودة الهواء الخفيفة تنبىء بقدوم الخريف. النهارات تقصر... هذا ما قاله الناس ثم علقوا على نوافذهم ستائر أكثر سمكاً، وأشعلوا المدفأة في المساء، ثم أخذوا يخططون لعيد الميلاد... كل الأشياء الطبيعية كالمعتاد.

لكن ذلك لن يحدث هذا العام، أكان بالنسبة إليها أو لزيلدا! لقد تغيرت حياتها إلى الأبد خلال يوم واحد!... ومع حلول العيد، لا يعلم إلا الله أين ستكون!.

أخذت تفكر في ذلك باكتئاب. إلى جانب المدفأة، كان ثمة رفوف تحمل

www.elromancia.com

الكتب والتحف المتنوعة... كذلك كان جهاز الراديو. أدارته فإذا هي موسيقى «الفتاة ذات الشعر الأشقر»، وملأت الأنغام الجوّ كآبة وشجواً.

أغمضت أدريان عينيها عندما جرفتها الموسيقى، فرأت تلك الفتاة بشعرها الأشقر المتألق في أشعة الشمس، تتنقل في المروج الخضراء، تفكر ربما بعرسها، ثم تأوي إلى بيتها في المزرعة، حالمة بحياة آمنة مليئة بالأمل. أما أنا... فلا أملك أي أمل على الإطلاق! سأفقد كل شيء عملت لأجله، وكل حلم عشت له!.

ربما عليّ أن أجعل لون شعري أشقر!... أخذت أدريان تفكر في ذلك ساخرة من نفسها. لقد ربطت مستقبلها ببيرس وصار جزءاً من حياتها. هي التي رسمت هذه الصورة لعلاقتهما في ذهنها، ثم حقنتها بكل ما لديها من مشاعر.

لقد بهرني منذ اللحظة التي رأيته فيها لأول مرة، رغم أنني كنت طفلة! كم كان متألقاً مختلفاً عن غيره! وبعد أن تخلّى عني كاي، جعلني هو أثق به. كان بيرس يعلم هذا... ولما عاد...

لا بد أنني كنت ساذجة كالبطة. لقد صدقت كل شيء قاله لي... سرت معه في مشروعه... سرت عمياء إلى هذا الفخ!.

أخذت تشعر بتبلّد غريب... لا شيء يهمّها بعد الآن! كل مشاعرها تبدّدت وأخلت مكانها للفراغ... ولكأن تلك الفتاة التي كانتها لم تعد موجودة على الاطلاق!.

شعرت بالدفء يتسرّب إلى دمها المتجمد، ولكن المتاعب المحدقة بها بدت لها أكثر وضوحاً.

قررت بهدوء، أن ليس عليها أن تكون خاسرة! أمامها خيار، وإن يكن غير مستحب.. لكنه خيار جاد.

بيرس لم يكن يريدها، ولكن ثمة رجل آخر يرغب فيها. كل ما عليها أن تفعله هو الاستجابة لشروطه فتنحل مشاكلها، أو معظمها.

لقد عرض عليها زواج مصلحة، وهكذا لن يكون عليها أن تتظاهر بأنها

مغرمة به... يمكنه أن يحصل على قشرة فارغة، كما هي الآن، إذ لم يعد يوجد شيء آخر! أخذت تحدّق في الفراغ. ستعيره نفسها لبعض الوقت لأنه سرعان ما سيملّ منها وعندئذ سيطلب منها الانفصال عنه، نعم ستقبل هذا الزواج الذي لن يدوم طويلاً بالتأكيد.

بدا لها كل شيء يجري بهدوء بالغ. إنها اتفاقية اقترحها بنفسه، أما هي فتقوم بصفقة... لا أكثر ولا أقل!. بهذه الطريقة سيصبح عملها آمناً، وكذلك هذا البيت. وستنقذ زيلدا وابنها أيضاً. عليها أن تكون عملية، وأن تقوم بالشيء المناسب. وعليها أن تقوم به الآن طلباً للشجاعة.

نهضت بسرعة جعلت رأسها يدور، ثم اتجهت إلى التليفون تطلب فندق «كينغزآرمز»، من دون أن تمنح نفسها فرصة للتفكير.. أو تغيير الرأي، أو معاودة التفكير في صوابيّة هذا الأمر.

أجابت فتاة بتهذيب بالغ: «فندق كنغزآرمز»، الاستعلامات، أيّ خدمة؟».

تنحنحت أدريان: «هل يمكنني التحدث إلى السيد كاي هادن من فضلك».

ـ آسفة يا سيدتي! السيد هادن غير موجود حالياً، إلا أننا نتوقع عودته للعشاء، هل يمكن ترك خبر له؟

قالت للفتاة بشيء من الهدوء: «هلاّ أخبرته، من فضلك، أن الآنسة لاندر اتصلت به؟».

ـ طبعاً، يا آنسة. هل هو يتوقع اتصالاً منك؟.

ساد الصمت لحظة، ثم قالت أدريان بصعوبة: «نعم.. نعم. هذا أمله».

ثم وضعت السماعة برفق. رفعت رأسها ونظرت إلى صورتها في المرآة فوق منضدة التليفون. كان وجهها شاحباً ما خلا بعض اللون فوق وجنتيها، كما كانت عيناها غائمتين من البكاء.

قالت تحدّث نفسها بسخرية وانفعال: «إنها صفقة مجنونة... لكنني فعلتها الآن... ولا أستطيع الرجوع عنها!... الثمن باهظ جداً!».

٤ ـ لا عودة . . .

كانت أدريان تتسلق صاعدة الى «بيت الشجرة» عندما دخلت شظية خشبية في ركبتها، فأدمتها.

ـ دعيني أراها!.

أجلسها كاي على فراش مطوي، وأخذ يتفحص الجرح بدقة وبشيء من القلق:

ـ يمكنني أن أنزعها، ولكنها ستؤلمك. هل يمكنك ان تبقي ثابتة من دون حركة أثناء ذلك؟.

أومأت بصمت وهي تعض شفتها من الألم. لم تكن تريد أن تبكي، لئلا يجدها مزعجة، فلا يسمح لها ثانية بالصعود الى بيت الشجرة ولا باستعمال منظاره الذي ترى من خلاله الأرانب والطيور والسناجب، ولا يعطيها ورقة من دفتره ويعلمها كيف ترسم شجرة أو زهرة.

فتح علبة البسكويت القديمة التي كانت تعتبرها صندوقه كنزه. كان فيها بوصلة وعدسة مكبرة وأقلام حبر ورصاص وملقط وسكين رائعة.

كان سريعاً ماهراً. وعندما انتهى كانت عيناها مغرورقتين بالدموع رغم أنها لم تصدر صوتاً. رفع عينيه إليها وقد رقت أساريره فارتجفت شفتاها بابتسامة، ثم قال:

ـ كنت شجاعة جداً! لكن الجرح بحاجة الى تطهير جيد، وربم إبرةضد

الكزاز.

وأخرج منديلاً نظيفاً من جيبه وربط به الجرح الصغير: «الأفضل أن تعودي إلى البيت لتراك أمك».

وإذ رآها تطرق بخيبة أمل، أضاف قائلاً: «ولا تعتبري هذا الأمر عقوبة. غداً تجدين أن بيت الشجرة ما يزال هنا، وكذلك أنا!».

* * *

ـ يا إلهي!.

همست أدريان بذلك، وهي تنتصب جالسة في كرسيها وقلبها يخفق: «لا بد أنني كنت أحلم!».

ولكن هل كان هذا حلماً؟ أخذت تتساءل بضيق، وهي تنظر في أنحاء غرفة الجلوس، أم أن ذكريات طال دفنها عادت فجأة وعلى نحو مشوّش، إلى عقلها الواعي؟ كلمة مشوّش هي الكلمة المناسبة كما فكرت وهي تهز رأسها، فقد كانت تشعر بتشويش بالغ.

وببطء، أزاحت ذيل ثوبها، ثم نظرت إلى الندبة الصغيرة في ركبتها. إنها هنا منذ وقت طويل وقد أصبحت جزءاً منها فلم تعد تشعر بوجودها سوى الآن عندما تذكرت فجأة كيف حدثت.

لكنني أعرف لماذا نسيت!... لأنني في المرة التالية التي ذهبت فيها إلى المنزل «غرانج»، كان بيرس هناك... فتغيّر كل شيء. لم يعد «بيت الشجرة» مكاناً مقدساً، بل أصبح كابوساً. كما أن كاي لم يعد بطلي أو صديقي بل أصبح «عدوي»!. هذا إلى أن الجرح في ركبتها لم يكن شيئاً يذكر بجانب الجروح التي آلمتها على يدي كاي، حينذاك.

وفي ما بعد، كانت الندوب خفية داخلية، لكن تأثيرها ما زال قوياً.. وتملكتها مرارة جراء هذه التداعيات.

فانتفضت واقفة وهي ترتجف، ثم جلست مجدداً، مدركة أنها ما زالت تشعر بشيء من الدوار. عندما كانت تهوّم شبه نائمة، كان الظلام قد انتشر

وازدادت البرودة أيضاً. ربما أصيبت ببرد هو سبب ارتجافها هذا!.

أخذت تتنقل باحتراس، فأشعلت المصابيح، ثم اتجهت إلى النوافذ لتسدل الستائر عندما رنّ جرس الباب، فتوقفت عن السير. توقفت لحظة، مترنحة بعض الشيء، شاعرة بقلبها يخفق وبفمها يجف. لو أنها لم تشعل تلك المصابيح اللعينة، لادّعت أنها غير موجودة!.

تحسست طريقها إلى الردهة على كره منها، ثم فتحت الباب فشهقت عندما صفعتها لفحة من الهواء البارد.

قال كاي: «مساء الخير! لقد استلمت رسالتك. هل يمكنني الدخول؟».

لفت ذراعيها حول جسمها بشكل دفاعي: «ماذا تريد؟».

ـ أنا من علي أن أطرح هذا السؤال وليس أنت! أنت من اتصل، هل نسيت؟.

ابتلعت ريقها: «نعم.. نعم، فعلت هذا».

واستندت إلى إطار الباب: «إنك حتماً لم تضيّع الوقت».

نظر إليها متفحصاً: «هذا ليس ترحيباً جيداً، يا حبيبتي! هل تغيّر قلبك؟».

بالرغم من شعورها بالضعف، نظرت إليه متحدية: «لا. لقد اتصلت بك لأنني.. لأنني قررت قبول عرضك».

فتمتم يقول: «هذا ما قدّرته».

حدقت فيه، شاعرة نحوه بالكراهية: «وها هوذا المنتصر هنا يطالب بالغنيمة!».

فابتسم بتهكم: «أظن الوقت ما زال باكراً لاعتبار النصر كاملاً».

ومنحها لحظة لاستيعاب ذلك، ثم تابع: «هل أنت مصممة على المضيّ في الحديث ههنا، على العتبة؟».

تراجعت بإذعان: «تفضّل! الطريق من هنا».

وسارت نحو غرفة الجلوس، لكنها اضطرت للاستناد إلى الجدار

ومنضدة الردهة أثناء سيرها. سارع كاي إليها: «دعيني أساعدك!».

لكنها نفضت ذراعها مبتعدة: «دعني وشأني! يمكنني السير في بيتي!».

عبست، وتنفست بعمق وهي تلفظ كلمة (بيتي) بوضوح تام.

أشارت نحو ركوة القهوة: «هل تريد فنجاناً؟».

وأمسكت بالركوة ورفعتها في الضوء تنظر إليها: «آه! لم يبق فيها شيء!».

ألقى عليها نظرة فاحصة طويلة: «متى أكلت آخر مرة؟».

أخذت تذكر عاقدة حاجبيها: «لا أتذكر. وما شأنك أنت، على كل حال؟».

ـ إنه اهتمام بصحتك، يا آدي.

ـ اهتمام خاص؟ أليس هذا ابتعاداً عن التهذيب، نوعاً ما.

فضحك ثم قال بهدوء: «على أي حال، لا أريدك أن تموتي من سوء التغذية قبل أن تسنح لنا الفرصة لتنفيذ اتفاقنا. من هناك المطبخ. أليس كذلك؟».

تبعته أدريان وأخذت تنظر إليه بنوع من السخط الصامت وهو يملأ الإبريق بالماء ويضعه على النار بعناية، ثم يعثر على القهوة والفناجين. قالت ببرود وكلمات مطاطة: «اعتبر نفسك في بيتك».

ـ شكراً!

سألته: «ما الذي تفعله هنا بالضبط؟».

ـ شعرت بأن من الأفضل مناقشة بعض التفاصيل الهامة بعد أن تهدئي.

قالت مستنكرة: «لكنني هادئة!».

فقال ملاطفاً: «لا، بل أنت مضطربة.. وأنا أريد أن تفكري بوضوح».

تنفست بعمق: «وإرادتك، طبعاً، هي الأسمى والأعظم!».

سكب القهوة ثم ناولها فنجانها: «خذي هذا.. هل لديك بيض؟».

www.elromancia.com

- لا! الخزانة خالية. لا تنسَ أنني كنت أسكن في «غرانج».

فقال بلطف: «وكيف يمكنني النسيان؟ فما يزال عابقاً برائحتك الزكية. لا تهتمي بأمر الطعام. سأتصل بذلك المطعم الفرنسي في شارع «ماركت ستريت» وأطلب منهم ارسال شيء».

فقالت بثقة: «إذا كنت تعني مطعم «ماميزون»، فهم لا يرسلون طعاماً إلى البيوت».

فابتسم: «إذن، سأحاول إقناعهم».

- ألم يخطر لك أنني ربما لا أريد تناول العشاء معك؟.

- بلى، ولكنني نبذت هذه الفكرة، لأن علينا أن نبدأ بهذه الخطوة الأولى معاً عاجلاً أم آجلاً، والعاجل أفضل.

وضعت فنجانها على المائدة وقالت بحذر: «ماذا تعني بقولك: الخطوة الأولى؟».

- أعني العشاء، لا غير. وهو في ظروف أخرى، قد يسمّى (موعداً).

فرفعت حاجبيها: «إلا أنني لن أخرج في موعد معك أبداً، مهما كانت الظروف!».

فقال ضاحكاً: «إذن، فأنا مسرور لأنني لم أطلب ذلك منك قط، وإلا لكنت شعرت بالإهانة!».

فقالت بغضب مفاجىء: «والدور الذي رسمته لي؟ تريد الزواج مع أنك تعلم أنني مغرمة بشخص آخر؟ أليس لديك كرامة؟».

قال بابتسامة عريضة وسخرية لاذعة: «وهل المفروض أن أطأطىء رأسي خزياً ثم أنسل خفية في ظلام الليل عائداً من حيث أتيت!».

- أليس لديك ضمير؟

فهز كتفيه: «حتى الآن، تدبرت أموري بشكل جيد من دونه! ولا أظن أن حبيبك السابق كان يملك ذرة من ضمير».

- إياك أن تجرؤ على انتقاد بيرس! إنه على الأقل، ليس مغتصباً!.

فقال بلطف: «ولا أنا. وسيكون سروري بالغاً لو أثبتّ ذلك في وقت

قريب..».

وسكت لحظة ليجعلها تستوعب كلامه: «والآن، سأطلب شيئاً من الطعام. سمعت أن الدجاج بالليمون عندهم لذيذ».

- لا أريد أي دجاج لعين!

- هل تفضّلين «اليخنة» مع اللحم؟

- لا! (وارتفع صوتها) ألا يهمك أنني ما زلت أحب بيرس؟.

- أرى أن هذا الحب لا يناسب تماماً مواهبك وميزاتك. ولكن اعتبريه عارضاً مرضياً، أو شيئاً صبيانياً أشبه بالحصبة، وستنسينه!.

فقالت بنزق: «ولكنني لا أريد أن أنساه!».

فقال بهدوء: «هذه سخافة منك الآن! إنك ترفضين دائماً رؤية الحقائق، وهذا يمنعك من الحكم الصحيح على الأمور».

وسكت لحظة ثم تابع: «وعلى كل حال، إذا كان هذا هو شعورك حقاً، فلماذا اتصلت بي؟».

- لصالح شخصية؛ ولديّ الكثير منها! ثمّ إنك لم تترك لي خياراً آخر. قررت ألا أخسر كل شيء عملت لأجله، خصوصاً وأن هناك آخرين يعملون معي، وسينهارون معي، وأنت الوحيد الذي يقدّم لي حلاً. وهذا لا يعني أنني مسرورة بما سأفعل.

قال متأملاً: «السرور كلمة باهتة! إنني أفضل كلمة السعادة وهو ما ستجدينه!».

وابتسم لها، فقالت بعنف: «أبداً!... ليس في هذا العالم أبداً!».

فنظر إليها مصمماً: «إنني، وبكل قوة، أنصحك بأن تحاولي، وستجدين الأمر أسهل مما تظنين. وعلى كل حال لا أظنك تعرفين ما تحبين!».

أضاف ذلك بهدوء ولطف، فخفق قلبها وقالت: «ما معنى كلامك؟».

- أنا واثق من أنك ستفهمين. والآن ارتدي معطفك لأننا سنتناول

www.elromancia.com

العشاء في المطعم.

فقالت بتمرد: «لا أريد الخروج!».

- ستجدين ذلك أسلم لك (واكتسحتها عيناه بنظرة مهيمنة) ذلك أن دافعي إليك قد أصبح قاهراً تقريباً.

ونظر إلى التوهج الذي كسا وجهها، ثم أومأ متابعاً: «هذا إلى أن رؤيتنا معاً بين الناس سياسة جيدة. فقد تمنع المتعهدين من أن يحطموا بابك!».

فعضت أدريان شفتها، ثم قالت وهي ترتجف قهراً: «نعم... نعم... نعم.. يمكنني فهم هذا!».

بدت لها الغرفة فجأة من الضيق بحيث لم تعد تستطيع التنفس جيداً.

- هل... من المفروض أن يكون مطعم «ماميزون»؟.

- ألا تحبين الذهاب إليه؟.

- اعتدت... الذهاب إلى هناك كثيراً.

فتنهد: «مع بيرس؟».

- طبعاً!.

- والآن ستذهبين معي، وسرعان ما يصبح هذا الأمر طبيعياً.

- هنالك مطعم إيطالي في ساحة...

- آدي... أنا لن أضيّع الوقت في تجنب الأماكن التي كنت تذهبين إليها مع خطيبك السابق. فالحياة قصيرة جداً. والآن أحضري معطفك!.

فقالت بمرارة: «نعم، يا سيدي! سمعاً وطاعة!».

فضحك: «ها قد فهمت الآن. وأسرعي من فضلك، إنني أتضوّر جوعاً!».

نظرت إلى بلوزتها وتنورتها: «عليّ حقاً أن أغير ملابسي!».

- هذا حسن. سأنتظرك هنا. لكن لا تجعليني أنتظر أو أصعد للبحث عنك، لأنك ستندمين على ذلك!.

- لا تخف! لقد سبق أن شعرت بكل الندم الممكن.

فقال متجهماً: «لا تعتمدي على هذا!».

وفي غرفتها، بدا لها أن تقفل الباب. لكنها كانت تعلم أن هذا إضاعة للوقت. قد يكون جسم كاي نحيفاً، لكنه من القوة بحيث ينتصر عليها بسهولة، حتى لو كان في طريقه باب قوي عتيق.

نظرت إلى نفسها في المرآة، فشعرت بغصة في حلقها وهي ترى وجهها الشاحب وعينيها المعذبتين.

تصميمها على تغيير ملابسها لم يكن سوى عذر.. لهرب مؤقت من محنة المواجهة هذه. فقد أخذت تشعر بالاختناق أثناء الحديث.. وبأنها وقعت في الفخ. مع ذلك، لم يكن هناك من تلومه سوى نفسها.

إن رؤيتها نفسها وحدها مع كاي، جعلها تدرك المعنى الحقيقي لتصميمها ذاك. فهو، حتى الآن، لم يكد يضع يده عليها. ولكن سرعان ما يتغير الأمر، وعليها أن تتقبل ذلك.

وإذا صعد كاي ووجدها هكذا في ملابسها الداخلية تحدق في الفراغ؟ لن يكون الأمر مدعاة للتسلية!.. هكذا أخذت تفكر، منقبضة القلب، وهي تندفع إلى خزانة ثيابها.

معظم ثيابها كانت ثياب عمل. الأثواب الجميلة القليلة التي لديها اشترتها لأجل بيرس، لكي ترتديها أمامه وتسمع منه تمتمات الاستحسان.

لم تجد ما يلائم هذه المناسبة سوى ثوب اشترته ولم تلبسه قط. كانت تريد أن ترتديه أمام بيرس في زيارته المقبلة... كما تذكرت بمرارة.

أخرجته وأخذت تتفحصه. كان عبارة عن تنورة وبلوزة من «الفوال» الفضي اللون المطرز بالأسود. كانت التنورة تصل إلى الركبتين. أما البلوزة، فقد كانت ذات كمين صغيرين.

كان اختيارها لهذا الثوب جيداً، كما رأت؛ فقد كانت التنورة تنساب حول جسدها الرشيق. وضعت لوناً أحمر على خديها والظلال حول عينيها، ثم عقدت شعرها إلى الخلف بوشاح حريري أسود. وانتعلت حذاء أسود منخفض الكعب، ثم اختطفت سترة سوداء حريرية.

عندما هبطت السلم إلى الطابق السفليّ، كان كاي واقفاً في باب غرفة الجلوس.

قال وقد رفع حاجبيه لرؤيتها: «كان صبري قد بدأ ينفد. ولكنني الآن مُعْجَب!».

ـ لا تكن كذلك، فأنا لم ألبس لأجلك. إنني واثقة من أن الألسن ابتدأت تثرثر عن مشاكلي المالية. وهكذا، مهما كانت نتيجة مناقشاتنا هذه الليلة، لا أريد أن أبدو خاسرة!.

ـ هل ترتابين في أن اتفاقنا ستنتهي بنا راضيين؟.

وجرحتها السخرية في صوته. فردت عليه ببرودة: «الصفقة تحتاج إلى اثنين وأنا لديّ شروطي أيضاً».

ـ أنا واثق من ذلك. هلاّ خرجنا الآن؟.

* * *

لم يكن مطعم «مامیزون» فسيحاً جداً. لكن جوّه الحميم وطعامه اللذيذ جعلاه مزدحماً باستمرار.

كانت أدريان ترجو سراً أن يعتذر مدير المطعم لعدم وجود مكان خالٍ لهما. ما أجمل أن ترى كاي محبطاً فتشبع في نفسها الرغبة في الانتقام، ولو بهذا الأمر البسيط التافه. ولكن، بدلاً من ذلك، قوبلا بابتسامات الترحيب وقادهما النادل إلى مائدة منعزلة.

جلست أدريان ونظرت إلى رفيقها عبر الطاولة ثم قالت بشفتين متوترتين: «متى حجزت هذه الطاولة؟».

فأجاب بثقة ولطف: «بعد أن خرجت غاضبة من المنزل «غرانج» بوقت قصير. وأنا مسرور لأن حكمي على الوضع كان صائباً».

فقالت بصوت خافت: «يا إلهي! أنت بالغ الثقة بنفسك!».

ـ لا. وإنما بارع في تقدير الأمور، وهذا هو السبب في توفيقي. بينما بيرس في البرازيل مع امرأة سرعان ما ستضجر منه..

خفضت أدريان بصرها تنظر إلى غطاء المائدة الأبيض: «لا أريد أن

أسمع شيئاً عن ذلك، ولست مهتمّة!».

ـ هراء! إنك آسفة فقط لعدم وجود صور فوتوغرافية لهما بين يدي!.

فحدقت فيه قائلة: «يا لك من وغد!».

ـ حسناً! كلماتك هذه واضحة تماماً. ولكن ابتسمي أثناء قولها، فالناس ينظرون إلينا.

وناولها قائمة الطعام: «ولا تخبريني بأنك لست جائعة. إنك بحاجة إلى شيء يزيل هذا الشحوب».

فقالت وهي تضع من يدها القائمة من دون أن تنظر إليها: «أريد «بفتيك» وسلطة».

ـ كما تشائين... ولكن سلوكك هذا مضر بك أولاً. وبما أنك جئت إلى هنا للمناقشة، فبعض التعاون مفيد.

ساد الصمت لحظة، ثم مدّت أدريان يدها إلى القائمة وهي تعض شفتها. أدركت أنه على صواب بقوله إنهما محط الأنظار، علماً أنه هو الذي يجتذب النظرات الجانبية والتعليقات الخافتة وليس هي، لأن النساء الأخريات في المطعم كن ينظرن بأعين متفحصة، وحاسدة أحياناً. تملكتها المرارة، ليتهنّ يعلمنّ فقط...

ولكن.. ولكن.. ماذا لو أنها كانت تراه لأول مرة... دون ماضٍ أو تاريخ معها... ماذا سيكون رأيها به؟. كان قويّ الشخصية للغاية، كما اعترفت بذلك على مضض. لقد ذهب ذلك الغلام الصامت الخجول، منذ وقت طويل. والعينان الهادئتان الآن تعكسان عالماً من الخبرة.

ربما كان هذا ما أحست به أولئك النسوة. قد يكون ثرياً، لكنه لا يحتاج أبداً إلى المال كي يجذبهن. إنه يمتلك شخصية جذابة غير عادية، قد تحرجها الآن، ولكنها لا تستطيع إغفالها، وعليها أن تخاف منها. وابتلعت ريقها وهي تفكر في ذلك.

ـ هل قررت ما تريدين؟.

فأجابت بصوت أجش مسرورة لأن قائمة الطعام تخفي عنه عينيها:

«هذا. . . هذا ما يبدو».

كان الطعام نوعاً من الخلاص، فترة من هدوء في عالم مضطرب.

واستمعت الى حديث كاي الفكه بابتسامة بدت وكأنها تسمرت على شفتيها.

بعض الناس تقدموا من المائدة لتحيتها. . . اثنان من زبائنها، أما الآخرون فكانوا مجرد معارف. وجميعهم كانوا يريدون التعرف إلى كاي. أوضحت أدريان لهم، بوجه وصوت باردين، أنه المالك الجديد للمنزل «غرانج»، فرأت منهم اهتماماً بالغاً.

وعلى كل حال، من حسن حظها أن خطبتها لبيرس لم تكن معلنة رسمياً. كان سكان المدينة يعرفون بعلاقتهما، ولكن أحداً غير زيلدا لم يكن يعلم بطلبه الزواج بها.

كان قد قال لها: «أريد احتفالاً فخماً، حفلة رائعة في المنزل أدعو إليها كل أبناء المنطقة. وإلى أن يحين ذلك الوقت، دعيهم يتكهنون».

لقد تضايقت أدريان، حينذاك، من هذا التقييد. لكنها تشعر الآن بالارتياح. يكفيها ما يدور حول متاعبها المالية من إشاعات، أما أن تجعلهم يعلمون بأنها خُدعت ثم هجرت، فتصبح عرضة لشفقتهم أو سخريتهم. . . فهذا أسوأ ما يمكن أن يكون.

إنها الآن، تتعشى مع رجل جديد، وكأن لا شيء في العالم يشغل بالها. فلتدعهم يفكرون ويقولون ما يشاؤون، الآن وإلى الأبد!

جيء إليهما بالطعام ثم تركهما النادل بمفردهما.

قال كاي بلطف: «والآن، هل نتحدث في العمل؟».

ـ وهو كذلك.

قالت أدريان هذا وهي تكاد تغص بلقمتها: «كنت قلت عصر هذا اليوم إنك ستدفع الديون التي تراكمت عليّ بسبب إصلاح المنزل، ثم تكلفني بإنهاء بقية العمل على. . . على أن أتزوجك. . . أليس كذلك؟».

ـ بلى!.

وأبرز ضوء الشموع تألق عينيه بشكل غريب. ركزت اهتمامها على تقطيع الدجاج، ثم تابعت: «وإلى متى تدوم هذه الاتفاقية؟».

فقال بهدوء: «المعذرة! لم أفهم!».

قالت تشير بشوكتها: «أسابيع؟ أشهر؟ سنة؟ كم من الوقت سيمضي قبل أن تعتبر أن الاتفاقية بيننا انتهت ومن ثم تطلق سراحي؟».

فقال بعد لحظة من التفكير: «من الصعب تقدير هذا الأمر. بالتأكيد أتوقع مقابلاً مُجزياً للمال الذي سأدفعه».

تصلبت وهي تنظر في صحنها: «نعم!».

ـ هل فكرت في المبلغ الذي تحتاجينه؟.

ـ بشكل تقريبي.

قالت ذلك بصوت أجش، ثم ذكرت مبلغاً بدا لها فاحشاً. . . ولعله كذلك، خصوصاً مع هذه المناكفة التي تبديها حيال كاي!. أومأ برأسه من غير أن يبدو عليه الانزعاج:

ـ أفضل أن تعطيني قائمة بالذين تدينين لهم، والمبالغ. سأرتب الأمر مع سكرتيرتي من أجل تحويل المال إلى حسابك في البنك.

سألته بتسرع: «متى؟».

فقال بلطف: «بعد أن تفي بالتزاماتك، يا أدريان. . . وعلى النحو الذي يرضيني تماماً. . (ابتسم) وهكذا، فإن الأمر عائد إليك تماماً».

فقالت بصوت مختنق: «هذا ليس عدلاً! لا يمكنني أن أضمن».

فقال ساخراً: «هيا، يا عزيزتي. لا تخبريني بأن كل هذه النار المتأججة في عينيك ليست إلا سوء طباع! أنا واثق من أن هذا لم يكن رأي بيرس».

فتصلب ظهرها: «لكن ذلك أمر مختلف تماماً. لقد. . . لقد أحببت بيرس».

ـ وأنت تكرهينني!. هل هذا ما تريدين قوله؟.

فقالت باقتضاب: «لا يمكنك أن تلومني».

فلوى شفتيه: «الحب والكراهية، يا آدي، هما وجهان لعملة واحدة.

ومع المعاشرة عن قرب، صدقيني، ينتفي الفارق».

وسكت لحظة: «لقد صبرت طويلاً، ويمكنني الانتظار فترة أخرى لكي تتقبلي الوضع».

ـ سنة! مهما حدث، عليك أن تطلق سراحي بعد سنة. هذا هو الحد الأقصى الذي أحتمله. هل توافق؟.

هز كتفه: «هذا إذا شئت. ولكن هل خطر في بالك، يا آدي، أن سنة قد تكون فترة طويلة؟ ستة أشهر قد تكون مدة أكثر واقعية! ثم إن السأم يتملكني بسرعة!.. وهكذا، قد تنتهي محنتك بأسرع مما تظنين».

فقالت بصوت مبحوح: «ست ساعات... ست دقائق... هي فترة طويلة بالنسبة إليّ. كما إنني أريد غرفتي الخاصة ومكاني الخاص..».

ـ يمكنك أن تحتلي جناحاً بأكمله عندما لا أكون موجوداً. وعندما أكون في المنزل، ستشاركينني حياتي وغرفتي، مفهوم؟! (فأومأت بصمت) إذن فقد تقرر كل شيء. والآن كلي شيئاً من طعامك قبل أن يبرد.

فقالت، بوضوح تام: «لقمة أخرى تخنقني!».

فقال ضاحكاً: «كما تشائين».

قالت بهدوء: «وكيف تعلم أنني لن أسحب المال من البنك وأهرب؟».

ـ لا أظن ذلك. إنني أعتمد على مراعاتك وضع زملائك والمتعهدين باعتبارهم أهم لديك من كراهيتك لي. عليهم أن يواجهوا مشاكل صعبة إذا أنت ذهبت، وأنا أعرف أنك لا تريدين ذلك.

ـ تباً لك! بالطبع لا أريد ذلك!.

ـ سيصل أثاثي في غضون أسبوع، وأريدك أن تشرفي على إنزاله وتنظيمه، ثم تنهي ما تبقى من عمل في إصلاح المنزل. لم يبق الكثير!.

ـ كنت تحدثت عن خدم ستحضرهم...

ـ ستلحق بي مدبّرة منزلي الحالية. أريد منك أن تتفقي مع شركة للتنظيف ومتعهدين لإصلاح الحدائق. وإذا صادفتك مشكلة، اتصلي

بسكرتيرتي الشخصية واسمها «سالي بارفيت».

وناولها بطاقة «شركة هادن للتطوير»: «سأكون في بروكسل حتى نهاية الأسبوع. لكنني سأعود ظهر الجمعة، فنعقد الزواج. وأتوقع أن أجدك، يا آدي، دافئة مرحبة. لا أريد أعذاراً».

فقالت بجمود: «سأكون... هناك.. لقد قلت هذا».

ـ كنت أفضل قناعة أكبر.. وتعهداً أقوى! . والآن، هل نتصافح تأكيداً لاتفاقنا؟ لأجل جمهورنا؟.

نظرت إلى المائدة عندما أخذ يدها يصافحها، وقد التمعت عيناه، مطيلاً النظر في وجهها، ثم قال بلهفة ورقة بالغة: «ما أبعد ليلة الجمعة!».

أجابت بصوت لا يكاد يسمع: «هذا بالنسبة إليك، وليس إليّ!».

نهضت واقفة تحمل سترتها وحقيبة يدها. ثم قالت بهدوء ووضوح: «تصبح على خير، يا سيد هادن. و... شكراً... أتمنى لك رحلة موفقة».

وبابتسامة شملت بها الزبائن الآخرين، سارت إلى الباب رافعة الرأس، ثم توارت في صقيع الليل.

* * *

٥ ـ كل شيء له . . .

وصلت إلى كوخها لاهثة، وقذفت نفسها إلى الداخل. أضاءت مصباح الردهة، ثم وجدت نفسها تركض من غرفة إلى غرفة، تضيء مصابيحها بحركة محمومة إلى أن اشتعل الطابق السفليّ بالأنوار.

أي شيء... أيّ شيء يمكن أن يبدّد الظلام الذي بدا وكأنه يطبق عليها؟! الظلام الذي جلبه إليها كاي هادن! إنه ظلام في داخلها، وسيتعذّر تفسيره!. ارتجفت، ولفت ذراعيها حول جسمها، شاعرة بالاختناق.

أخذت تبرّر ذلك لنفسها: «لقد فاجأني، هذا كل ما في الأمر! وسآخذ حذري في المستقبل. سأكون رزينة ببرودة الحجر».

أومأت لنفسها بغضب وهي تسير نحو المطبخ. ما تحتاجه هو مزيد من القهوة السوداء، إذا استولى عليها الأرق! بعد أحداث الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، من غير المتوقع أن تستطيع النوم. على كل حال كانت ملأت الإبريق لتوّها ووضعته على النار، عندما سمعت طرقاً على الباب الخلفي.

لا بد أن زيلدا رأت كل الأضواء مشتعلة، فجاءت لتطمئن. ولكن أدريان كانت مترددة في التحدث معها حالياً. خافت أن تقول أكثر مما يجب... فتنبه شريكتها إلى ما تخطط له. إن زيلدا ستمنعها من ذلك مهما كانت الظروف. كانت أدريان تعلم ذلك.

أعادت علبة القهوة إلى مكانها بسرعة، ثم تناولت بدلاً منها علبة شاي الأعشاب. ستدعي الإرهاق، وأنها ستشرب هذا قبل النوم، ثم تبعد عنها

زيلدا بعد أن تطمئنها.

تشجعت ثم فتحت الباب لتجد نفسها تحدق في وجه كاي هادن المتجهّم.

قالت بصوت أجش: «ماذا تريد؟».

ـ لا أريد ألاعيب!.

ودخل إلى المطبخ رافساً الباب خلفه يغلقه: «كان خروجك من المطعم رائعاً، يا آدي. لكنك لم تخدعي أحداً، خصوصاً أنا! لا أستطيع الانتظار حتى مساء الجمعة، وكذلك أنت، كما رأيت من ردة فعلك».

قالت بصوت مختنق: «اخرج من هنا! اخرج من بيتي!».

فهز رأسه: «إنك لا تعنين ما تقولين، وأنت تعلمين هذا..».

ـ لا... لا، إن بيننا اتفاقية!.

ـ إن رحلتي خطرة، ويمكن حدوث الكثير في أسبوع. قد لا أعود. وبعد، ربما تهربين، فأنا بحاجة إلى أن أعرف، يا آدي. بحاجة إلى أن أعرف كيف ستكون مشاعرك إزاء مشاعري... وما إذا كانت كما كنت أحلم دائماً؟.

تقدم خطوة نحوها فتراجعت، رافعة يديها أمامها محاولة تجنبه: «أرجوك!».

فرفع حاجبيه: «ما المانع؟».

فقالت بصوت مبحوح: «ما زال الأمر باكراً لذلك. إنني... أنا لست مستعدة».

ـ الآن.. في ما بعد... أي فرق؟ لقد أعطيت كلمتك، يا آدي. هل تخلفين وعدك؟.

ـ لا... ولكن من الآن إلى يوم الجمعة، سأجد فرصة لأفكر في الأمر كله.

فهز كاي رأسه وقال بلطف: «أنا غير موافق. فهذا هو الوقت الذي عليك أن تكفي فيه عن التفكير وتبدأي بالشعور».

واتجه نحوها خطوة أخرى، فعادت تتراجع وإذا بها تصطدم بالمائدة خلفها.

ـ مسكينة آدي! لم يبق لك مجال للهرب!.

كان الآن قريباً منها لكنه لم يلمسها. . رفعت بصرها تحدّق إليه وشعرت بالضعف والوهن. . . بادلها التحديق والتوت شفتاه بما يشبه الابتسام ثم قال:

ـ أظن أن لديك زائراً!.

وعلى الفور سمعت صوت زيلدا خارج الباب ينادي: «أدريان. . هل أنت هنا؟ هل أنت بخير؟».

وفي الوقت الذي فتحت فيه الباب ودخلت، كان كاي يقف في الطرف الآخر من المطبخ يهتم بإبريق الماء الذي كان يغلي على النار.

ـ آه. . .

وبدا على زيلدا الارتباك البالغ حين رأته: «آسفة! رأيت كل المصابيح مضاءة فعجبت. . . لم أدرك. . .».

ـ كل شيء على ما يرام!.

كانت ابتسامته ساخرة متراخية وكأنها المرأة الوحيدة في العالم التي يريد أن يراها في تلك اللحظة بالذات كما أخذت تفكر أدريان بغضب صامت، أما هو فقد أردف قائلاً: «كنت على وشك الخروج».

هذا ما أضاف وقوداً إلى اللهب: «كل ما في الأمر أنني وضعت التفاصيل النهائية مع الآنسة لاندر».

قالت زيلدا بتردد: «حسناً، إذا كنت واثقاً. . .».

ـ تماماً. . .

ثم التفت إلى أدريان بأسارير جامدة باردة وكأنه غريب: «أظن حديثنا القصير قد جعل الأمور أكثر وضوحاً، أليس كذلك؟ إنني أتطلع إلى يوم الجمعة القادم. أرجو ألا تزعجي نفسك».

قال عندما همّت بمرافقته إلى الباب وقد انفرجت شفتاها سخطاً:

«سأخرج وحدي!».

ثم منحهما معاً ابتسامة سريعة أخرى، وخرج.

قالت زيلدا بلهجة مثقلة بالمعاني: «إذاً، ما معنى هذا كله؟!».

أجابت أدريان بمراوغة، وهي تتساءل عما إذا كان بإمكانها السير في المطبخ من غير أن تنهار ساقاها تحتها: «لا أدري! ماذا تعنين؟».

ألقت عليها زيلدا نظرة طويلة: «من تراك تخدعين؟ كان بإمكانك قطع الجوّ الذي كان بينكما بالسكين من شدّة التوتّر».

ـ كلام فارغ!.

واتجهت أدريان نحو الخزانة وتناولت علبة القهوة وفنجانين، متشاغلة بذلك في محاولة للتغطية على تشتتها الكامل واضطراب أنفاسها: «كنا نتحدث في العمل!».

فقالت زيلدا ضاحكة: «يا له من عمل! إذن فهذا هو كاي هادن الجديد! إنه لم يتغير كثيراً! ما زال أشقر جذاباً! لكنه حتماً دائم التنقل عديم الاستقرار!».

وسكتت وهي تنظر إلى أدريان متفحصة: «ثم إنك تبدين في أحسن حال! أليس هذا هو ثوبك الجديد؟».

عضت أدريان شفتها، ثم سكبت القهوة وأعادت الإبريق إلى الموقد.

ـ لقد خرجنا لتناول العشاء. شعرت من واجبي أن أقوم بمسعى ما، وهذا كل شيء!.

سألتها زيلدا بلهفة: «حسناً، وهل نجحت؟».

حركت أدريان السكر في القهوة. ثم قالت بهدوء: «أظن ذلك. على كل حال، سيدفع نفقات العمل في المنزل «غرانج»، ويدعني أنهي المشروع. وهكذا ليس علينا أن نقلق».

فأغمضت زيلدا عينيها: «آه، يا إلهي! إنها معجزة!».

ثم نظرت إلى أدريان غير مصدقة: «وما العقبة، إذن؟».

ـ ولماذا تظنين أن هناك عقبة؟

- لأنني لا أؤمن بالمعجزات.

ترددت أدريان. لم تجد وقتاً لاختراع قصة، ووجدت أن نصف الحقيقة قد ينفع. هزت كتفيها متظاهرة بعدم المبالاة: «إنه يريدني أن أقيم في المنزل «غرانج» أثناء متابعة الإصلاح».

قطبت زيلدا حاجبيها: «لماذا؟».

- لا جديد في الأمر.

وأخذت جرعة من قهوتها آملة أن يفسرّ هذا احمرار وجهها: «على كل حال، فقد مكثت هناك الأسبوعين الماضيين».

- نعم. ولكن ذلك حين كنت وبيرس ستتزوجان، وكان المنزل ملكك، الأمر الذي لم يعد كذلك!.

- ما زال هناك الكثير من العمل للإنجاز، وهو لديه ذوقه الخاص. لهذا يريدني موجودة على الدوام لكي يطمئن إلى أن كل شيء سيكون على ما يرام.

- ألا يستطيع القيام بذلك بنفسه؟

- إنه غالباً مسافر. وعلى كل حال فقد أنقذني من ورطتي بدفعه أجر المتعهدين. فإذا طلب مني خدمة كهذه، لا يمكنني الرفض طبعاً. أنا مدينة له!.

- الاعتراف بالجميل شيء آخر!... وأرجو ألا أكون قد قطعت عليكما الليلة حفلة الاعتراف بالجميل تلك! إنما على هذا الرجل ألا يتوقع أن يتملكك روحاً وجسداً. تذكري هذا جيداً!.

ولوت شفتيها بجفاء. ابتسمت أدريان مرغمة وقالت وهي تعبث بثنيات تنورتها: «ها أنت ذي تتكلمين بحماقة!».

ولكنه سيمتلكني فعلاً... أخذت تفكر في ذلك.. نعم، ولا يمكنني القيام بشيء حيال ذلك!...

ما زالت لا تستطيع تصديق ردة فعلها إزاءه. فهي لا تكن له سوى الكراهية والازدراء، ومع ذلك كانت شبه عاجزة أمامه. وشعرت باستياء كبير.

قالت زيلدا بلطف: «إذا كنت لا ترغبين في عرض كاي هادن، يا آدي،

قولي ذلك الآن. سنتدبر أمرنا بشكل ما. لم يفت الأوان بعد».

لكن أدريان رأت أنه فات فعلاً. فات منذ اللحظة التي رأته فيها يقف هناك، محدقاً في المنزل.

فرفعت رأسها: «كل شيء على ما يرام. السكن في «غرانج» قد لا يكون مناسباً، ولكنه إجراء مؤقت فقط، وسرعان ما تعود الحياة بعد ذلك إلى مجراها الطبيعي».

وتمنت، بشيء من الخوف، أن تستطيع هي تصديق كلماتها هذه.

* * *

أخذت أدريان تفكر، وهي تستدير بسيارتها الجيب نحو طريق المنزل، أنه لم يبق سوى ساعات قليلة وينتهي النهار ومن ثم تتغير حياتها إلى الأبد.

كان أسبوعاً غريباً ذلك الذي مضى. فالأيام كانت قصيرة وهي تكافح لتنهي العمل في المنزل، بينما الليالي طويلة يجافيها النوم. لم تتمكن من نسيان آخر مقابلة لها مع كاي.. بدا لها أنها ستدفع غالياً ثمن ضعفها.

كانت تستلقي في الظلام، ليلة بعد ليلة، وهي تحلم بالفردوس الذي سيضمها مع بيرس. كانت تحبه حقاً، ولكنه لم يكن يثير فيها مثل المشاعر التي أثارها كاي!.

وارتجفت. كيف تمكن كاي من أن يسيطر على مشاعرها بذلك الشكل؟ وبكل تلك السهولة أيضاً؟! حدثت نفسها بأن سبب ذلك مجرد كونه رجلاً بالغ الخبرة يعبث بمشاعر فتاة بريئة. إنه تعليل سطحي غير مقنع! ولكن ما هو التفسير الآخر لذلك؟ كان شيئاً أشبه بالسحر تمكن منها!.

في المرة القادمة، لن يجدها بهذا الضعف، عقلياً وعاطفياً!. وكان هذا عهداً منها لنفسها أثناء النهار، كان الأمر أكثر سهولة. فالعمل سيأخذ كل وقتها فتنسى نفسها في متعة الإصلاح وإعادة كل شيء إلى حالته الأصلية، ورؤية المنزل يعود إلى الحياة مرة أخرى.

عاد كل المتعهدين إلى العمل، بضمانة كاي هادن، كما يبدو. ورغم انتباهها إلى نظرات الفضول، إلا أن أحداً منهم لم يشر إلى الشيكات المرتجعة

أو حتى إلى المالك الجديد للمنزل. . على الأقل في حضورها.

كانت أحياناً تكاد تنسى الثمن الذي عليها أن تدفعه بسبب خيانة بيرس لها، فيذكرها شيء ما بالنظام الجديد، وبما ينتظرها من مواقف صعبة.

كان وصول عمال شركة التليفون لوضع خطوط إضافية هو البداية لتتبعها معدات المكتب ذات التقنية العالية.

وهذا النهار تلقت بلاغاً عن قرب وصول شحنة أثاث أخرى. كانت الشحنة الأولى وصلت في اليوم السابق، فأخذت تراقب العمال وهم يُدخلون الكراسي والأرائك والوسائد الوثيرة والأغطية المطرزة. بدا منظرها حسناً للغاية في غرفة الاستقبال، ولكن أدريان لم تكن معجبة بذوق كاي. أما الأسرة الجديدة فكانت واسعة عريضة، كما لاحظت وهي تقود العمال إلى الغرف التي عليهم أن يضعوها فيها.

اختارت لجناحها الخاص سريراً معتدل الاتساع. وكان الجناح يحتوي على حمام خاص وغرفة جلوس، وهو مقابل لجناح كاي. وكان عليها، هذا النهار، أن تكمل تأثيث جناحها الصغير. لقد أحضرت من كوخها أمس كرسياً بذراعين، لكنها ما زالت بحاجة إلى منضدة وخزانة ذات أدراج. وعلى كل حال، كان ثمة عدد من قطع الأثاث الصغيرة رآها بيرس غير جديرة كي ترسل إلى المزاد فأنزلت إلى القبو.

وهكذا، قد تقع من بينها على شيء مناسب داخل المنزل. كان العمال ينهون ترتيب المكان استعداداً للمغادرة. لقد أذهلها الجهد الذي بذلوه مؤخراً، إلى أن سمعت واحداً منهم يقول إنَّ كاي هادن قد وعدهم جميعاً بهبة إذا هم أنهوا العمل في وقته.

ما أجمل أن يمتلك المرء ذلك القدر من المال، ليكون له ذلك القدر من القوة! أخذت أدريان تفكر في ذلك وهي تدخل إلى المطبخ حيث وضعت الإبريق على الموقد ثم أخذت مفتاح القبو وذهبت لتتفحص قطع الأثاث.

كان القبو، يوماً ما، مصدر فرح أنغس ستريتون ومتعته، لكنه أصبح

الآن أشبه بمستودع للنفايات!.

هكذا أخذت تفكر بأسف وهي تضيء النور. لقد باع بيرس أشياء رائعة في المزاد العلني.

أخذت تفكر وهي تتنهد بأنه كان عليها آنذاك أن تنتبه إلى أنَّه كان بحاجة إلى المال. صدقته حين قال إنه لا يريد أن يعيش في الماضي. ولكن ما الذي لم تكن تصدقه حينذاك؟.

سارت بحذر إذ كان المكان مغطى بالتراب وخيوط العنكبوت ثم أخذت تتفحص الكراسي والمناضد. أول ما وجدته منضدة صغيرة كانت ذات يوم في الغرفة الصباحية. يمكن إصلاحها بسهولة، كما رأت وهي تلمسها. وربما عليها أن تقوم بجرد وتسجيل كل الموجودات هنا.

تحت صندوق يحتوي على فناجين وصحون، وجدت منضدة صغيرة مستديرة من خشب «الماهوغاني» كانت قشرتها تخدشة لا غير، ومعها كرسي يلائمها. بالقرب منهما، وجدت خزانة بثلاثة أدراج. رأت أن كاي لا يمكن أن يضن عليها بأي من هذه القطع.

وهكذا، أخرجت المنضدة الصغيرة من القبو. وما إن التقطت أنفاسها حتى سمعت صوتاً يقول: «الآنسة لاندر؟».

رأت أمامها امرأة قصيرة بدينة ترتدي بذلة كحلية أنيقة، ذات شعر يغطيه الشيب. قالت بحيوية: «أنا «جين ويتلي». أظنك تتوقعين قدومي».

ابتسمت أدريان، وخجلت من قميصها العتيق وبنطلونها الملطخ بالدهان.

ـ نعم، طبعاً. . . مرحباً بك في المنزل «غرانج».

نظرت المرأة حولها بإعجاب: «يا له من منزل جميل! يمكنني أن أرى سبب رغبة السيد هادن القوية به».

وانحنت تحمل حقيبة ملابس بجانبها: «إذا شئت أن تدليني على مكان إقامتي. إن بقية أمتعتي في السيارة».

ثم نظرت إلى ساعتها: «سيكون الغداء جاهزاً بعد ساعة ونصف، يا

سيدتي. إنه عبارة عن حساء وشطائر فقط، مع الأسف، لكنني سأعود هذا المساء». ونظرت إلى المنضدة: «وإلى أين يجب أخذ هذه؟».

ـ إلى غرفتي. وهنالك اثنتان غيرها أيضاً. سأطلب من أحد العمال إحضارها.

ـ ستكون بحاجة إلى تنظيف، دون شك. من المؤسف حقاً أن تُترك مثل هذه الأشياء الجميلة للتحطيم! لكن كل هذا يمكن أن يتوقف، الآن.

قالت ذلك بحزم وبنوع من الاستياء: «والآن أين سأنام؟».

أخذتها أدريان إلى شقة مستقلة في الطابق الثاني حيث اعتادت أن تقيم مدبِّرة هذا البيت في الماضي.

تساءلت، وهي تعود إلى الطابق السفليّ، عما إذا كانت المرأة تعلم أن كاي كان يعيش هنا من قبل.

كان الحساء من الخضار، أما الشطائر فكانت من السلمون المدخَّن. وعندما جاءت السيدة «ويتلي» لتأخذ الصينية، قالت لها أدريان بصدق: «كان الطعام لذيذاً!».

ـ إنه مجرد طعام خفيف.

وألقت نظرة متفحصة على قوام أدريان النحيل: «إنك بحاجة إلى تغذية، يا آنسة لاندرا!».

ثم أخذت الصينية وخرجت. تساءلت أدريان عما إذا كان هذا صحيحاً، وهي تنظر إلى قوامها في زجاج النافذة. كان الأسبوع الذي أمضته من دون طعام مناسب ولا نوم كامل قد أبرز عظام وجنتيها وجعل عينيها تبدوان منهكتين تحيط بهما هالة. لوت شفتيها وهي تفكر في أن منظرها ربما يجعل كاي يقرر أنها لم تعد تصلح للبيع!.

عاد رأس السيدة ويتلي يطل من خلال الباب: «شاحنة الأثاث وصلت لتوها آنسة لاندر. قال السيد هادن إنك سترشدين العمال إلى أمكنة وضعها لأنك تعلمين ذلك».

فقالت أدريان بارتباك وهي تتبع المرأة إلى الردهة: «أعلم ذلك؟ لا

أفهم!».

لكنها سرعان ما فهمت عندما أُنزلت القطع الأولى من الأثاث بعناية ثم أُدخلت إلى المنزل، فقالت بدهشة: «ولكن، هذه أشياء السيد ستريتون؟ خزانة الأوراق تلك، والمنضدة والكرسي! ثم ذاك مكتبه الضخم الذي كان في المكتبة (وهزت رأسها) لكن هذا مستحيل!».

ـ كلا، ما دمت تعلمين مكانها، يا سيدتي. السيد هادن حريص على أن يبدو المنزل كما كان في الأيام الخوالي، بالضبط.

ازدادت دهشة أدريان: «رباه! إنه في غاية الدقة!.. حتى السجادات العجمية.. ومعظم اللوحات الزيتية أيضاً.. وكذلك الفضيات!».

فتحت أقرب الصناديق إليها فوجدت نفسها تنظر إلى علبة الشطرنج الخاصة بأنغس ستريتون، وبجانبها كان صندوق أحجار الشطرنج. تساءلت كم من المرات رأت أباها والسيد ستريتون يجلسان متقابلين في المكتب، يفكران في نقل البيادق؟.

ليس المنزل فقط... ولا أنا!.

أخذت تفكر بذلك وهي تشعر ببرد في أعماقها: «إنه يريد كل إرث بيرس! لم يغفل عن شيء، حتى أدق التفاصيل!. لا بد أنه كان ينتظر طوال تلك السنوات. وها هو انتقامه... منا نحن الاثنين!».

رفعت رأسها تحدِّق في الفضاء. يا له من قاس! إنه قاسٍ جداً!.

***

٦ ـ هل أنت جاهزة؟

قالت زيلدا: «ليس عليك حقاً أن تفعلي هذا!».

أحكمت أدريان إقفال حقيبة ثيابها. كان الوقت صباحاً عندما انتهى وضع الأثاث في أماكنه في المنزل، فوجدت متسعاً من الوقت للعودة إلى بيتها وأخذ ثيابها؛ وهي مهمة تركتها لآخر لحظة، كمحكوم بالإعدام يأمل في إيقاف التنفيذ.

أجابت ببساطة: «أريد ذلك؛ وهو عمل كأي عمل آخر».

ثم سكتت لحظة: «ولكنك لم تعارضي بهذا الشكل عندما انتقلت إلى غرانج المرة الماضية؟».

ـ تلك المرة كانت مختلفة. كلانا يعلم ذلك ولكنك لا تعترفين به!.

وكانت زيلدا متجهمة الوجه: «حسناً! لا تظهري كل هذا التجهم!».

بلعت ريقها وشدّدت من عزيمتها ثم تابعت قائلة: «بعد قليل سأكون مع كاي أمام القاضي!».

فتحت زيلدا عينيها إلى أقصى اتساعهما: «لماذا القاضي؟!.. هل ثمة دعوى بينكما؟».

أدركت أدريان أن أسلوبها جعل الموقف أكثر دراميكية، فحاولت أن تكون بسيطة: «سنعقد زواجنا.. وسيكون مؤقتاً باتفاق ضمني بيننا».

ولكن دهشة زيلدا تضاعفت: «زواج؟!.. من كاي؟!».

ـ هدّئي من روعك يا زيلدا!.. أعرف تماماً سبب دهشتك، زواج

مصلحة.. زواج لن يطول أبداً وقد أعود حتى قبل أن تنتبهي إلى غيابي.

ـ أيُّ زواج هذا الذي يجبرك على التضحية بنفسك وبكل مشاعرك؟!.

ـ إن أولوياتنا باتت معروفة: إنقاذ وضعنا المنهار، بما في ذلك العاملات معنا و.. جرو كيفين أيضاً!.

ترددت زيلدا قليلاً.. إنها لحظة مواجهة الحقيقة! تمالكت نفسها وقالت بلهجة حمّلتها كل معاني التفهُّم والمشاركة والتقدير: «إنني أثق بعقلك وشجاعتك يا أدريان...».

تلعثمت قليلاً، وسادت لحظة صمت قبل أن تلتقي نظراتهما وتتعانقا بحرارة.. ودموع صامتة.

عندما خرجت زيلدا، حملت أدريان حقيبتها إلى سيارتها «الجيب». لم تحضر معها كل أشيائها فلاحقاً تعود لإحضار سائر أغراضها.

* * *

في تمام الثالثة من بعد الظهر، كانت، هي وكاي، يغادران مكتب القاضي بعد إجراء عقد الزواج. وصلا في سيارتها إلى مدخل البيت، وكان على كاي أن يستأذن لإنجاز عمل طارىء غير قابل للتأجيل. نزل من السيارة بخفة ورشاقة قاصداً الجهة الأخرى حيث تجلس أدريان خلف المقود. فتح الباب وقال بلطف بالغ: «حبيبتي آدي، لن أغيب وقتاً طويلاً..».

وفيما كانت تنزل لتأخذ مكانها خلف المقود، طبع قبلة على خدها وقال هامساً في أذنها: «لن أتأخر.. وأتوقع أن أجدك لدى عودتي مرحّبة دافئة».

أخبرها كاي أنه أعلم مدبرة منزلة بأمر زواجهما وهذا يعني أن السيدة ويتلي ستكون تحت تصرفها. ولكن يا ترى ما رأي هذه السيدة بزواجهما الغريب هذا؟.

عندما دخلت أدريان المنزل، وجدت لوحتين جميلتين مرسومتين بالألوان المائية معلقتين على جدار غرفة الجلوس. كما وجدت قطع الأثاث القديمة مصقولة لامعة. على الكرسي الكبير ثمة وسادة وثيرة، وعلى المنضدة تقوم زهرية تحوي وروداً ووجدت غرفتها مجهزة فالسيدة ويتلي على ما يبدو

www.elromancia.com

على علم برغبتها في غرفة منفصلة عن الجناح الرئيسي، جناح كاي الذي هو الآن زوجها.

قالت أدريان للسيدة ويتلي: «كل شيء يبدو رائعاً!».

فقالت المرأة باسمة: «أوصاني السيد هادن بأن تكوني مرتاحة ولديك كل ما تحتاجينه. أهلاً بك في بيتك سيدتي».

ونظرت في ساعتها.

- والآن، عليَّ أن أبدأ في إعداد العشاء فعذراً سيدتي. سأحمل عنك حقيبتك.

- لا بأس سأحملها بنفسي شكراً لك.

لم يستغرق إفراغها لحقيبتها وقتاً طويلاً. بعد ذلك، وجدت نفسها خالية من العمل. سرّها أن تتنقل في أنحاء المنزل لتراه قد رجع، تقريباً، كما كان في عهد السيد ستريتون. كان يبدو في الماضي بالنسبة لفتاة صغيرة قصراً فخماً. أما السيد ستريتون، فكان يبدو أشبه بساحر بالغ اللطف يحدثها عن الصور التي تغطي الجدران، ويفتح لها الخزائن الحاوية كل نفيس عجيب، فيسمح لها بملامستها بينما يحدثها عن تاريخ كل منها.

كان كاي موجوداً باستمرار.. هادئاً، مراقباً. لقد كان السيد ستريتون طيباً جداً معه، ولا بد أن قلبه تحطم عندما اكتشف لصوصيته! هكذا أخذت أدريان تفكر بأسف: الحمد لله لأنه لن يعلم أبداً أن كاي كان ينتظر الفرصة المؤاتية ليتقدم ويسرق كل شيء!.. وشعرت بالمرارة!.

بدا عصر ذلك اليوم طويلاً من دون نهاية، يتقدم ببطء نحو اللحظة التي سيعود فيها كاي.

حاولت أن تشغل نفسها باستعمال الكمبيوتر في المكتب لتضع تصميماً جديداً لحديقة المطبخ. لكنها وصلت إلى لحظة شعرت فيها أن جدران الغرفة سوف تطبق عليها. كانت تنظر إلى ساعتها كل دقيقة، متوترة الأعصاب... ثم تركت ما بيديها وخرجت تتمشى.

تنقلت بين الأشجار متجنبة المكان الذي كان فيه «بيت الشجرة». عليها

أن تنبذ من ذاكرتها ذلك الجزء من طفولتها، فتحيله إلى ركن بعيد من عقلها، بالرغم من أن الحس بالخيانة.. بالهجران.. لن يفارقها.

أما ما فعله بيرس فهو من غير شك أكثر سوءاً! مع ذلك، كان لديها إحساس غريب بأن أثر خيانته في نفسها لن يبقى طويلاً.

ما زالت الشمس تلقي أشعتها الدافئة على ظهرها، ولكن في الجو صقيع يشير إلى فصل الخريف. كان هذا هو وقتها المفضل من السنة، لا سيما وأن عملها يزدهر فيه إذ يقرر الناس إصلاح بيوتهم قبل عيد الميلاد. أما الآن، فقد أصبح لكاي هادن نصيب الأسد من وقتها!.

حدثت نفسها بأنها لن تسمح بأن يتضرر عملها. إنها بحاجة إلى شيء تعود إليه عندما... ينتهي كل هذا. عضت شفتها وأوسعت خطاها. فالحاضر هو ما عليها أن تهتم به. أما المستقبل... فليتدبر أمره بنفسه!.

عندما رجعت إلى المنزل، كان قد مرّ عليها أكثر من ساعة، فاستقبلتها السيدة ويتلي بالقول:

- لقد اتصل السيد هادن، وهو سيتأخر قليلاً. لذلك أجلت العشاء إلى الساعة الثامنة والنصف. هل تريدين أن أسخن لك الحمام، يا سيدتي؟.

رباه، إنها تطلب مني الاستعداد! أن أجلس في حوض الحمام المليء بالماء المعطر، وأصبغ أظافر قدمي، وأرتدي ملابس رائعة شفافة، استعداداً لعودة الزوج! حسناً، لن يكون ذلك! وهو لا ينطبق عليّ في حالتي هذه. سأبقى كما أنا الآن!.

ابتسمت لمديرة المنزل: «شكراً. لكنني سآخذ دوشاً سريعاً فقط. وعندما أنزل سآخذ شراباً ساخناً».

- كما تريدين يا سيدتي! لكنني ظننت...

- أعلم ظنك....

قالت أدريان هذا واتجهت إلى السلم.

اغتسلت وغسلت شعرها. ثم ارتدت بنطلون جينز أبيض وكنزة سوداء حريرية طويلة الكمين بفتحة عنق مستديرة، ثم عقصت شعرها الرطب فوق

رأسها بعقدة مسترخية. بعد ذلك، وضعت مرطباً على وجهها ولوناً أرجوانياً خفيفاً على شفتيها زادهما تألقاً، ثم اكتحلت.

ألقت نظرة فاحصة على نفسها في المرآة، فرأت أن ما قامت به لا يعدو كونه أناقة عادية، وهذا كل ما هي مستعدة للقيام به!.

نزلت إلى الطابق السفلي على كره منها، ثم دخلت غرفة الاستقبال. كانت المصابيح مضاءة، والنيران مشتعلة في المدفأة تبدّد صقيع المساء. جلست على إحدى الأرائك المتلألئة كالجواهر، فبدا لها كل ما في الغرفة متألقاً مرحباً فيه.. إلا هي!.

الآن، وقد أزفت لحظة الحقيقة، أخذت أدريان بالتوتر. بإمكانها أن تحلل منطقياً ما تقوم به إلى ما لا نهاية. لكن الحقيقة تبقى أن عليها الاعتراف بأنها أصبحت زوجته وهذا يعني أن عليها أن تدفع الليلة.. وهذا سيكون في سرير كاي، بين ذراعيه!

ولم تكن واثقة من قدرتها على مواجهة الأمر. ولكن هل لديها خيار آخر؟... وأحست بالمرارة.

ستحاول ألا تفقد توازنها، وفيما هي تفكر في ذلك توصلت إلى قرار جاد: سيحصل كاي على جسدها، ولكنه لن يحصل على قلبها وروحها، فهما ملك لها وحدها. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تنجو بها؛ وهي إغلاق عقلها، امتناعها عن تقديم أي شيء سوى جسدها.

الصبر!.. فكرت في ذلك وهي تراقب الحطب المشتعل في المدفأة. إنها الكلمة التي ستركز اهتمامها عليها وتتعلق بها.

دخلت السيدة ويتلي باسمة: «لقد عاد السيد هادن، يا سيدتي، وقد صعد ليغيّر ملابسه. ربما تحبين أن تصعدي إليه».

سكتت السيدة ويتلي تنتظر. وإذ أخذت شفتا أدريان تكوّنان رداً جافاً، إذا بها تتراجع وتكبح كلماتها الغاضبة. هذه هي البداية المتوقعة، ولا فائدة من الاحتجاج! وعلى كل حال، هذا ما اتفقت عليه مع كاي.

ابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت: «حسناً جداً!».

- هل ما زلت تريدين أن أقدم العشاء في الساعة الثامنة ونصف؟.

سؤال في منتهى اللباقة، لكن مغزاه واضح تماماً. وشعرت أدريان بوجهها يلتهب.

أجابت بهدوء مفتعل: «نعم! هذا حسن، شكراً!».

ثم اتجهت نحو الباب. شعرت بساقيها ثقيلتين كالرصاص وهي تصعد السلم ثم تسير إلى الجناح الرئيسي آخر الممر...

قرعت الباب برفق، ثم فتحته قليلاً. بدت الغرفة خالية. وسمعت تدفق المياه في الحمام. دخلت بهدوء، وما لبثت أن سمعت صوت كاي من خلفها: «مساء الخير!».

قفزت أدريان في مكانها، ثم تمالكت نفسها واستدارت نحوه. كان واقفاً في عتبة باب الحمام، ملتفاً بمنشفة كبيرة حول جسمه.

بدا لون جسمه، بجانب بياض المنشفة، شديد السمرة. وعضت شفتها. قالت بصوت أجش: «إنك... إنك أفزعتني!».

- يبدو أنها أصبحت عادة لديّ!.

قال ذلك معبراً عن استياء من نفسه ورفع شعره بأصابعه: «ولكن المفاجأة هي أنت!.. يا لحلاوتك وإحساسك!».

كان في عينيه بعض السخرية وفي صوته نبرة ضاحكة. وشيء آخر أقل وضوحاً.

ألقى بمنشفة شعره في الحمام ثم تقدم منها خطوة، فجمدت في مكانها.

توقف وقال بهدوء ماكر: «أدريان، سأمشط شعري. هذا كل شيء! وربما يريحك أن تعلمي أنني لا أقارب امرأة ومعدتي فارغة. أنت آمنة إلى ما بعد العشاء!».

قالت وهي ترتجف: «يا لك من وغد! كيف تجرؤ على السخرية مني؟!».

- حاولت أن أطمئنك.. إذ يبدو أن منظري قد أحالك إلى حجر.

وسار إلى منضدة الزينة وأخذ مشطاً: «عليك أن تتعودي على هذا، يا

أدريان».

ـ أتعود على ماذا؟.

ـ على أن أكون بجانبك. . .

وكان ينظر إليها في المرآة: «تراك نسيت أنك أصبحت زوجتي؟».

فرفعت رأسها: «وكيف أنسى؟!».

وضع المشط واستدار إليها: «اقتربي مني إذن كما ينبغي».

أطاعته مكرهة، وقد غاص قلبها وجفّ فمها. وضع يده على رقبتها برفق يجذبها إليه.

قال بلطف: «يمكنك الاحتفاظ دائماً بمشاعرك يا عزيزتي. أما الآن، فادّعي أنك مسرورة لرؤيتي».

ثم عانقها فوقفت بين ذراعيه، متصلبة. فرفع رأسه ونظر إليها بعينين لامعتين، ثم قال: «لقد كنت أخبرتك بأنني أريد منك ما يساوي أموالي، يا أدريان. وحتى الآن لم تقومي بما يساوي بنساً واحداً. . استرخي!».

ورفع يده ينزع دبابيس شعرها ليجعله ينسدل على كتفيها، ثم مرّ بأصابعه على الخصل الرطبة الحريرية. رفع يديها إلى كتفيه، قائلاً برقة: «عانقيني».

أطاعته وهي تبتلع ريقها، فشعرت بمبلغ ضعفها. . وسهولة تغلبه عليها إذا ما حاولت مقاومته. . .

عندما رفع رأسه، قال بابتسامة خفيفة: «أرأيت؟ لن يكون الأمر بيننا مستحيلاً كما تظنين».

نظرت إليه أدريان فشعرت بدوار غريب، قالت بصوت مرتجف: «أكرهك!».

قال من دون أن يظهر عليه أي استياء: «يمكنني التعوّد على هذا. إنك على الأقل لا تدعين الوقوع في غرامي، لأن ذلك يمكن أن يعني وجود مشكلة خطيرة. ثم دعي شعرك منسدلاً!».

أضاف ذلك بنبرة جادة ونظرة ساخرة حين رآها تنحني لالتقاط دبابيس شعرها عن الأرض: «إنه يمنحني شيئاً أحلم به أثناء تغييري ملابسي».

حملقت فيه باستنكار: «هل يمكنني الذهاب الآن؟».

ـ الخيار لك، كما هو على الدوام، يا حلوتي. أما إذا بقيت هنا، فالعشاء سيؤجل حتماً. يبدو أن شهيتي قد تغيرت.

لكنها اندفعت نحو الباب، تتبعها ضحكة عالية.

* * *

بعد ذلك بنحو ثلث ساعة، كانت جالسة على حافة إحدى الأرائك، تكاد تعض أصابعها غيظاً. كيف أمكن ذلك؟ أن تشعر للحظة بأنها استجابت له.

تمتمت بصوت خافت: «تباً له! . .».

ـ هل جعلتك تنتظرين طويلاً؟

كان هناك عند العتبة، ينظر إليها. . . ثم تقدم منها بخطوات واسعة وسألها: «أتريدين شراباً منعشاً؟».

فأجابت بسرعة: «لا، شكراً!».

قال بتلميح ماكر: «يبدو أنك تشعرين بالانتعاش».

فرفعت حاجبيها: «ألا تريدني كذلك؟».

ـ بالطبع! فالوعي والانتعاش مفضلان في هذه الحال.

عندما سار في الغرفة، أجفلت أدريان، لكنه لم يحاول الجلوس بجانبها، مفضلاً الجلوس على الصوفا المقابلة للمدفأة. لاحظت، بالرغم عنها، رشاقة حركاته وسهولتها. وتذكرت أنه، حتى في مراهقته، لم يكن عديم اللباقة كغيره من المراهقين. لكنهما لم يعودا طفلين، وأصبح هو مفترساً يريد الانقضاض على ضحيته الجالسة أمامه. عليها أن تتذكر ذلك!.

كان يرتدي ملابس عادية. بنطلوناً أزرق، وقميصاً مفتوحاً عند العنق.

أخذت تنظر إليه متكئاً على الوسائد خلفه، في أتم راحة، وشعره

الأشقر الداكن يلمع كالحرير في ضوء المصباح. رأته مستمتعاً بكونه في بيته. مشهده هذا أشعل في نفسها نار الغضب والاستياء، وأثار فيها مشاعر متناقضة. همست بصمت: «إنه متطفّل، مغتصب... وشيء آخر لا تستطيع أن تنساه!».

قال برقة: «أكاد لا أصدق أنك هنا!».

قالت من غير أن تنظر إليه: «هل كنت في شك من ذلك؟».

فقال باسماً: «لم أكن واثقاً أنك ستقبلين الزواج بي. وهذه هي إحدى مفاتنك يا آدي، وهي قدرتك على إدهاشي».

ساد الصمت حين أخذ يرتشف شرابه وينظر حوله باستحسان. ثم قال: «يبدو المنزل رائعاً! شكراً لك!».

فهزت كتفيها: «لم يكن إنجاز ذلك صعباً. إن لديّ ذاكرة جيدة».

ـ هذا إذا رافقها حسن الاختيار.

فقالت بعناد، متجاهلة اعتراضه: «أنت أيضاً لديك ذاكرة قوية. فأنت لم تغفل شيئاً. ما الذي جعلك تفعل هذا؟ (وأطلقت ضحكة قصيرة ماكرة): لا بد أنك بقيت تترصد بيرس أسابيع!».

ـ لم أكن بحاجة إلى ذلك. كنت أعرف ما سيفعله، والأسواق التي يمكن أن يقصدها. وبعد ذلك، كان كل شيء سهلاً.

فقالت بتأنيب: «ربح سهل! ككل شيء آخر أخذته منه. إنه حقاً سيء الحظ!».

أخذ رشفة من شرابه ثم قال بلهجة لينة غير متوقعة: «أنا لم أرغمه بالمسدس! هو الذي أراد أن يبيع. ويدهشني أن أراك تدافعين عنه!».

ـ أنا لا أدافع عنه. لكنني فقط لا أفهم سبب طوافك على قاعات المزادت باحثاً عن أثاث أنغس ستريتون. ما الذي كنت تحاول إثباته؟.

ـ لا شيء، أردت فقط أن تعود أشياؤه إلى مكانها الأول. ظننته سيسرّ إذا هو علم بذلك، وظننتك ستسرّين، أنت أيضاً.

ـ أتراه سيسرّ إذا أنت أنقذت أشياءه، بينما أسأت إلى السقف الذي

ظللك عندما أقدمت على السرقة؟!. أظنه سيشعر بالغثيان إذا علم أنك هنا، تدعي السيادة على بيته!.

ـ وهل هذا ما تشعرين به أنت أيضاً؟.

تشابكت أعينهما عبر المسافة التي تفصل بينهما. كانت عيناه أشبه بالثلج الأزرق، ولكن كان هناك شيء أكثر دكنة وعمقاً سرّع أنفاسها وبعث الرجفة في كيانها. كانت هي التي حولت عينيها أولاً، ثم قالت بصوت مبحوح: «وماذا غير ذلك؟».

فقال بعتاب رقيق: «هذا من سوء الحظ إذن، لأنني السيد هنا!.. فلا يساورك الشك في ذلك، يا أدريان!».

وسكت سامحاً لكلماته بأن تغوص في ذهنها، مراقباً عينيها المضطربتين وهي تستوعبها. ثم تابع يقول بجفاء: «لقد تعبت اليوم بما فيه الكفاية لذا آخر ما أحتاج إليه هو هذا الحديث».

ثم نهض واقفاً: «هل نذهب إلى العشاء، أم أنك مصممة على الإضراب عن الطعام؟».

شعرت بدافع جنوني للهرب إلى غرفتها، لكن شيئاً حدثها بأنه سيلحق بها، وأن كارثة قد تسقط عليها وتلازمها طوال حياتها.

ابتلعت ريقها باضطراب وهي تفكر في أن خلاصها لن يكون بالإقدام على عمل انفعالي غاضب.

نهضت رافعة رأسها كيلا يرى الذعر الذي تملكها، ثم سارت معه بصمت إلى غرفة الطعام.

* * *

www.elromancia.com

٧ ـ صفعة على القلب

كانت الأزهار قد رفعت من وسط المائدة الكبرى، وحل مكانها شموع مضاءة لتضفي جواً حميماً. فكرت أدريان أن السيدة ويتلي امرأة ذكية وعنكة.. أو لعلها تنفذ تعليمات. ساعدها كاي على الجلوس، ثم جلس أمامها قائلاً بجفاء: «ستكونين آمنة في مكانك هذا رغم ضيق المسافة التي تفصلنا».

تشاغلت أدريان بنفض فوطة السفرة وهي تفكر في أن كلمة (آمنة) لا تعبّر مطلقاً عن وضعها الحالي. لكنها عادت تذكر نفسها بأن ما بينهما ليس إلا زواج مصلحة.. مرددة المقولة التي ما انفكت تهمس بها لنفسها طوال الأسبوع: «لا شيء يدوم إلى الأبد!».

كانت السيدة ويتلي أعدت عشاءً رائعاً: فطائر ريفية، وبطة بالمرق، وحلوى بالقشدة.

دهشت أدريان وهي تجد نفسها مستمتعة بالطعام. وفكرت بسخرية القدر التي جعلت شهيتها تستيقظ هذا اليوم بالذات خلافاً لسائر الأيام.

لم يكن العشاء صامتاً. لقد أفاض كاي بالحديث عن رحلته إلى بروكسل والمشاكل مع الروتين الأوروبي.

تذكرت، وقد تملكتها غصة مفاجئة، أنهما كانا، في ما مضى، يتبادلان الحديث على الدوام. ولكن هذا كان في طفولتها، عندما كانت تثق به، قبل أن يتغير كل شيء...

وجدت نفسها تتساءل عما سيكون عليه شعورها لو أنهما يتقابلان للمرة الأولى؟. لو أنها معه هنا بكامل رغبتها من دون أن يلقي الماضي بظله الثقيل عليها؟ لكنها لا تستطيع أن تسمح لنفسها بمثل هذا التفكير. هذا غباء.. وقد يكون خطراً. وتملكتها رجفة. لم يفته ذلك، فسألها: «هل تشعرين ببرد؟».

ـ لا. إنني بخير.

كانت هذه كذبة. وشعرت بالارتياح عندما ظهرت مديرة المنزل لكي ترفع المائدة، ثم لتعود بعد دقائق بالقهوة، ثم تخرج متمنية لهما ليلة سعيدة.

قالت أدريان: إنها امرأة حكيمة. كتوم!.

وسكتت لحظة: «أعتقد أنها متدربة جيداً!».

فقال بسأم وهو يتنهد: «ماذا أقول؟ هل أقول إنني عشت من دون نساء طوال تلك السنوات؟ لن يكون هذا صحيحاً!».

فقالت بسخرية مرة: «وبطبيعة الحال، أنت الصدق بعينه».

ـ ولكن لم تكن حياتي في الوقت ذاته سلسلة من النساء. فالقسم الأكبر من وقتي كان للعمل، لتأسيس شركتي في الخارج وهنا.

فقالت بتهكم: «إنك لا تدعنا ننسى لحظة واحدة أيّ نجاح باهر أحرزت! ومع ذلك، لم يكن يبدو عليك، في الأيام الخوالي، أي طموح خاص».

فهز كتفيه: «ولعلني لم أقرر وقتها ما أريده حقاً».

ـ ثم وجدت أن ما تريده هو إرث بيرس!

ابتسم ببرودة: «لم يكن بيرس يهتم إلا بالأشياء السهلة التي يمكنه رميها لاحقاً. ألم تدركي هذا بعد؟».

ـ وقع في مشاكل مادية، فأغريته أنت بمبلغ جيد! ما المفروض أن يفعل غير هذا؟.

ـ لو كنت مكانه لما بعته.

سكت لحظة ثم أضاف برقة: «ولا أنت، يا أدريان!».

اضطربت لتلفظه باسمها. أخذت تنظر إلى فنجانها، وهي تدرك أن عينيه مسمرتان عليها، وتشعر بقلبها يخفق بين أضلعها.

قال: «هل نأخذ قهوتنا إلى غرفة الجلوس؟».

بللت شفتيها الجافتين بلسانها: «لا بأس بالمكان هنا... أليس كذلك؟».

قال بابتسامة فاترة: «تعنين بالنسبة إلى هذه الطاولة الخشبية التي تفصل بيننا؟ صدقيني يا حلوتي أن الحاجز الذي تحاولين بناءه في عقلك العنيد هو أقوى من أي شيء آخر».

توهج وجهها: «لا أدري ما الذي تتحدث عنه!».

- لا تخدعي نفسك، يا أدريان!.

ومال إلى الأمام فرأت بريقاً فضياً يتراقص في عينيه.. أم لعله انعكاس ضوء الشموع؟: «في هذه اللحظة، هناك معركة تدور في نفسك بين عقلك وجسدك، وهذا هو السبب الذي يجعلك تنفثين سماً بين كل نفس وآخر!».

فقالت بوضوح بالغ: «طبعاً لا يمكن أن يكون السبب هو أنني لا أراك جذاباً!».

حمل فنجان قهوته ونهض واقفاً «أنا ذاهب الآن إلى غرفة جلوسي الجديدة لأسمع بعض الموسيقى. أقترح أن تذهبي إلى سريرك. (وسكت لحظة) في غرفتك الخاصة».

فتحت فمها بذهول بالغ وهي تحدّق فيه: «لكنني ظننت... لا أفهم!».

فهز كتفيه: «ما الذي عليك أن تفهميه؟ إنك تقاتلين في معركتك الخاصة، يا عزيزتي. ورغم أنني مهتم طبعاً بالنتيجة، إلا أنني لا أتحلى بالصبر هذه الليلة لمشاركتك معركتك. وهذا من حسن حظك!».

قال ذلك بتجهم ذي مغزى: «وقد أخبرتك سابقاً أنني أمضيت رحلة مرهقة، ولا أريد أن أحوّل سريري إلى ساحة معركة. وهكذا، عندما ينتهي

الصراع، دعيني أعلم من الفائز: عقلك أم جسدك؟».

توقف في منتصف الطريق إلى الباب، ثم استدار إليها قائلاً: «واعذريني لعدم تقبيلك، تحية المساء، يا حلوتي! أظن أن من الأفضل أن أبقى بعيداً عنك، وإلا نسيت نفسي وأريتك أن سطح تلك المائدة لا يحميك من العواطف المحمومة التي تتصورينها. هل أدركت ما أعنيه؟».

وألقى عليها تحية احترام عن بعد، ثم خرج مغلقاً الباب خلفه بهدوء ولكن بحزم. تركها جالسة هناك، تحدّق في إثره، محاولة استيعاب ما حدث.

تملكها صراع داخلي بين مشاعر مختلفة. لكن عدم التصديق كان أقواها. طوال المساء، كان يلتهمها بنظراته، بصوته، بابتسامته، فظنت أنه لن يمرّ وقت طويل حتى يعبر عن ذلك. وكانت تعد نفسها لمقاومة سلبية. أما الآن... فلا شيء!.

أية لعبة يقوم بها إذن؟.

ما كان لها أن تلقي أسئلة. أخذت تفكر في ذلك وهي تطفىء الشموع وتسير نحو الباب بدورها. عليها فقط أن تكون شاكرة. لكن الاعتراف بالجميل لم يكن له مكان في اضطرابها الداخلي.

عندما اجتازت الردهة، سمعت الموسيقى آتية من غرفة الاستقبال. ميزت فيها ألحان «رحمانونوف» الحزينة المحمومة العاطفة. لم تكن موسيقى الجاز الباردة التي توقعتها.

ولكن دعينا نواجه ذلك، يا آدي؛ فأنت لم تعودي تعرفين ما عليك أن تتوقعي، بعد الآن.. حدثت نفسها بذلك وهي تصعد إلى غرفتها، وحدها.

* * *

حلمت تلك الليلة ببيت الشجرة مرة أخرى. إنه الحلم عينه: حين ركعت على الأخشاب تنظر برعب من فوق الشجرة، تبحث عن وسيلة للنزول. لكن الأرض كانت بعيدة، يغطيها الضباب! كانت تعلم أنها تبحث عن الأمان.. وكانت تعلم أيضاً أن ما كان يخنقها ليس العزلة

والارتفاع عن الأرض فحسب. . وجدت نفسها تبكي، لكنها لم تكد تميّز صوتها. كانت هناك أصوات أخرى أيضاً ارتفعت بغضب، لكنها لم تستطع فهم الكلمات لأن الريح حملت البيت الصغير وهزّته فهوى إلى الأرض وإذا هي ملقاة بين حطامه!.

استيقظت أدريان فزعة، فوجدت وجنتيها مبللتين بالدموع. جلست في سريرها وهي ترتجف. نظرت إلى المنبه الذي بجانبها فرأت أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. شربت جرعة ماء من إبريق بجانب سريرها، ثم نزلت واتجهت إلى مقعد تحت النافذة.

ركعت على ركبتيها ووضعت جبهتها على زجاج النافذة ثم أخذت تحدق في الظلمة الخارجية بعينين لا تريان. آن لها أن تتخلص من بعض الأشباح التي تؤرقها. عليها أن تبذل جهداً لتتذكر ما حدث بالضبط منذ سنوات بعيدة، ثم تمحوه من ذهنها إذا استطاعت.

رغم صغرها آنذاك في السن، لاحظت العداوة التي نشأت بين كاي وبيرس منذ اليوم الأول الذي أمضاه القادم الجديد الثاني في المنزل، فأحزنها ذلك. كان كاي صديقها، لكن بيرس كان مثيراً بملابسه الأنيقة، وكياسته وظرفه.

حياها في أول لقاء بينهما، بقوله: «إذن فهذه هي لاعبة الشطرنج العفرية! لقد حدثني خالي بكل شيء عنك. عليّ أن أنتبه إلى خطواتي».

وعندما لعبا، وغلبته، أخذ يبالغ بمدحها، ما جعلها تتألق. وكل مرة كانت تذهب فيها إلى «غرانج» بعد ذلك، كان يفتش عنها وكأنها هي الشخص الوحيد الذي يريد رؤيته. حاولت جهدها أن تؤالف بين الغلامين. كانت تريدهما أن يحبا بعضهما بعضاً فلا تشعر هي بعدم الولاء لكاي عندما يحتكر بيرس صحبتها، لكن كاي ظل نافراً. لم يكن الذنب ذنب بيرس. فقد كان اهتمامه بكاي واضحاً، وكان يسأل عنه دائماً. وأخيراً، أذعنت أدريان لضغطه وأرته بيت الشجرة.

أدركت غلطتها على الفور. فوقفت متكدرة بينما كان بيرس يجوس

فيه، متفحصاً كل شيء بعينين تنضحان ازدراء، عابثاً بعلبة البسكويت النالية على صاحبها، ملقياً بدفتر الرسم على الأرض.

ـ منظار مكبر!. (واختطفه) وهو من نوع جيد أيضاً. من أين تراه سرق هذا؟.

نظرت أدريان بخوف إلى المدخل وهي تقول: «السيد ستريتون أعطاه إياه. دعنا ننزل، أرجوك. كاي سيغضب إذا وجدنا هنا. إنه مكانه الخاص».

ـ ليس لكاي الحق في أي مكان على الإطلاق!.

وكان في صوته نبرة أخافتها: «إنه لا شيء. . . إنه فقط ابن مدبّرة المنزل (ونظر إلى المنظار المكبر) أما هذا. . .».

وتناول المنظار ثم ألقى به بعيداً، فسمعت صوت تهشم وارتطام بعد وصوله إلى الأرض.

صرخت وهي تكاد تجهش بالبكاء: «لقد كسرته!».

وأخذت تنزل عن الشجرة. عندما وصلت إلى الأرض، كان كاي بالانتظار. وجهه كالصخر، وعيناه تلتمعان غضباً وإدانة.

حاولت أن تقول شيئاً، لكنه قاطعها قائلاً: «عودي إلى البيت، يا آدي. اذهبي الآن!».

ركضت والدموع تسيل على وجهها. سمعت أصواتاً غاضبة خلفها، ثم صوت شجار عنيف. وعندما خرجت من بين الأشجار، رأت أباها واقفاً مع أنغس ستريتون قرب البوابة. كانا يتحدثان عنها كما يبدو. وصلت إليهما مقطوعة الأنفاس، ثم شهقت قائلة من خلال دموعها: «كاي وبيرس يتشاجران! اجعلاهما يتوقفان عن ذلك. . أرجوكما!».

قال السيد ستريتون متجهماً: «سأعالج الأمر».

ثم أخذ يركض، بينما قال أبوها وهو يحاول أن يبتعد بها برفق: «الأفضل أن نذهب إلى بيتنا!».

لكنها قاومت: «كلا يا أبي! أرجوك! أريد أن أرى كاي. أريد أن أرى

أنه لم يتأذ».

أخذت تنظر إليهما خارجين من بين الأشجار، يتبعهما السيد ستريتون.

كان بيرس يرعد بصوته، مجروح الشفة ممزق القميص، بينما كان كاي يحدق أمامه، جامد الوجه، وقد اسودّ ما حول عينه.

أفلتت أدريان من يد أبيها وركضت إليه: «كاي! (كان صوتها متعجلاً) كاي، أنا آسفة! لم أكن أريد أن يحدث هذا!».

لم ينظر إليها، وإنما قال بصوت هامس: «ابتعدي عني، يا آدي! إبقي بعيدة. إنني أحذرك!».

لكنها يجب أن تراه. أخذت تحدث نفسها وهي مستلقية في فراشها تلك الليلة. عليها أن تتحدث إليه بشكل واضح وتشرح له الأمر، تخبره بمبلغ أسفها لإفشائها سرّ مكانه.

في اليوم التالي، أخبرت أمها بأنها ذاهبة للعب مع زميلة لهافي المدرسة تسكن في الناحية الأخرى من القرية. إلا أنها ابتعدت بدراجتها واتخذت الطريق المؤدية إلى المنزل «غرانج».

تركت دراجتها في زاوية مهجورة من الفناء، ثم سارت إلى الغابة، متوقعة أن ترى كاي هناك يصلح بيت الشجرة.

عندما وصلت إلى الشجرة، كانت السماء أظلمت وابتدأ المطر يهطل. كان كاي عادة يساعدها على الصعود. ولكنها، هذه المرة، لم تسمع جواباً حين نادت. وهكذا كان عليها أن تكافح للصعود قدر إمكانها، وكادت قدماها تنزلقان على درجات السلم الخشبية الرطبة.

أحست بخيبة أمل حين اكتشفت أن كاي كان هناك من قبل، لأن كل أشيائه قد ذهبت. بدا البيت الخشبي الصغير مهملاً مهجوراً خالياً إلا من ورقة رسم مقطوعة نصفين وملقاة على الأرض.

التقطتها أدريان، فأدركت على الفور أنها تخطيط لصورتها هي، مستلقية على بطنها ووجهها بين يديها. لم تكن تعلم أنه كان يرسمها. وفهمت أنه لم

يعد يريد الصورة بعد الآن! . . .

كانت واقفة تحدق في الصورة، مغرورقة العينين بالدموع، عندما سمعت صوت حركة أسفل الشجرة. مدت رأسها وأخذت تنظر بخوف وحذر، وإذا بها ترى السلم ممدداً على الأرض وشخصاً يبتعد. كان الشخص يرتدي سترة رمادية واقية من المطر بقلنسوة مألوفة لديها.

أخذت تصيح به، وقد تملكها الارتباك والخوف: «كاي لا أستطيع أن أنزل. عد يا كاي! . . آه، أرجوك. عد!».

لم ينظر إلى الخلف. وإنما استمر في السير إلى أن توارى بين الأشجار. ومع ذلك، بقيت تنادي إلى أن بحّ صوتها. لم يكن يجيبها سوى الصمت.

وعندما عثر عليها بيرس أخيراً، بعد ذلك بساعات، كان كاي برفقته، يرتدي السترة الرمادية عينها! وبشكل ما، كان هذا أسوأ ما في الأمر. صرخت به: «أنت الذي فعلت هذا! لقد رأيتك! أنا أكرهك!».

والتقطت حجراً ورمته به. رأت الدم على وجنته، والعينين الرماديتين قد استحالتا إلى قطعتين من ثلج. فأدركت أنها فقدت صديقها إلى الأبد.

عادت أدريان إلى الحاضر وهي ترتجف، لتجد نفسها تلف ذراعيها حول جسمها بخوف. كان يبدو أن الذكرى ما زالت تملك مخالب تمزقها.

كيف فعل ذلك؟! سألت نفسها بتعجب واستنكار. كنت طفلة طائشة، لا أستحق ذلك. لم يهتم بكوني خائفة! لم يهتم بأنني قد أسقط ويصيبني أذى بليغ. . أو ربما أقتل! آنذاك، حملوها إلى البيت واهتموا بها. أعطيت حماماً ساخناً وحليباً دافئاً. . ووُضعت في الفراش. لكنها لم تستطع النوم، فنهضت وسارت إلى غرفة أبويها. كان الباب مشقوقاً فسمعتهما يتحدثان بصوت منخفض. كان أبوها يقول: «الفتى خطر! كان أنغس يخاف دائماً من شيء كهذا!».

لم تستطع سماع جواب أمها. وإنما قول أبيها القاطع: «إنهم سيبعدونه حتماً، لا حل آخر». وفي اليوم التالي، رحل كاي عن المنزل. كانت مسرورة، ولم تكن تريد أن تراه بعد ذلك أبداً.

لكنه عاد، ومعه مشاكل من نوع مختلف! ها هوذا الآن هنا، بشكل دائم، وأكثر خطورة من أي وقت مضى. فهي الآن تحت سلطته، ولا سبيل أمامها للهرب من الشروط التي وضعها بنفسه. وهي شروط قبلتها وعليها الآن أن تنفذها قبل أن يفوت الأوان وينفد صبره، أو تتلاشى رغبته العابرة فيها. . .

نهضت وقد بان الجد على وجهها. لا شيء يمكن أن يغيّر الماضي، لكنها تريد أن تضمن مستقبلها. ثمة أمور كثيرة متوقفة على هذا الزواج الذي يقوم بينها وبين كاي، وعليها الآن أن تنفذ المطلوب منها.

كان معطفها المنزلي الذي اشترته لشهر العسل مع بيرس لا يزال معلقاً في خزانتها، مغلفاً بالورق. بسرعة، ومن غير تردد، خلعت قميص نومها القطني وألقت به إلى الأرض. ثم تناولت المعطف الحريري الناعم: يا لنعومته وشفافيته!

ارتدته وهي تبتلع ريقها، ثم عقدت الربطتين عند الخصر والعنق. تركت غرفتها وسارت في الممر بصمت، يسبقها حفيف معطفها الحريري.

أخذت تفكر، ساخرة من نفسها، بأنه قد يكون نائماً وأن مبادرتها هذه ستذهب سدى!. لكنه كان مستيقظاً، يقرأ مستنداً إلى مرفقه، لا يغطيه سوى ملاءة، وغطاء السرير الداكن الخضرة مطوي إلى أسفل. ودار رأسها! إنها لم تُقم أيّ علاقة مع رجل من قبل، كما لم تشاهد من الصور أو الأفلام ما يساعدها في مثل هذا الموقف!.

ظنت أنه لم ينتبه إلى وجودها، لكنه رفع رأسه على الفور، وأخذ يحدّق فيها واضعاً إصبعه حيث وصل في القراءة. ثم قال برقة: «يبدو أن الأرق استولى عليك!».

ـ نعم!.

كان صوتها مختنقاً، وشعرت بوجهها يتوهج حرارة راحت تنتشر في جسدها تحت نظراته. قال بعد لحظة: «الشراب الساخن في المطبخ، وأنا لا أستعمل حبوباً منوّمة. فماذا بإمكاني أن أفعل لك يا أدريان؟».

بدا هذا وكأنه سؤال مهذب. سؤال مضيف ينشد راحة الضيف. . . لولا أنه لم يخدع أدريان. . .

قالت بصوت خافت: «كاي. لا تزد من صعوبة الأمر!».

استند بظهره إلى الوسائد، وهو ينظر إليها من تحت جفنيه: «المشكلة كلها في ذهنك، يا أدريان! دائماً كانت هناك؛ وذلك منذ قررت أنني عدوّك».

ـ كنت طفلة. فتاة صغيرة.

ـ لا، يا حلوتي. فأنت امرأة منذ ولادتك. لقد رأيتك وأنت تكبرين. هل نسيت؟ (ورفع يده يلمس خده ساخراً) لقد تركت هذا الأثر في وجهي طوال العمر.

ـ لست وحدك الذي يحمل آثار الجروح. تلك الساعات التي أمضيتها أنا في بيت الشجرة ما زالت تجلب لي الكوابيس. لقد. . . لقد انتابني واحد منها هذه الليلة.

فقال بشيء من الجفاء: «إذا جئت تلتمسين مني السلوان، فعليك أن تفكري مرتين».

فقالت بثبات: «إنك تعلم سبب حضوري».

بدا شيء من السخرية في ابتسامته: «إنك أفضل ما تكون عليه عروس في ليلة عرسها. لكن المظاهر قد تكون خدّاعة!».

ـ إنها وجهة نظر. فأنا لم أعد أعرف من أنت، وما أنت.

فهز كتفه: «أنا رجل أنت بحاجة إلى أمواله. أعتقد أننا اتفقنا على ذلك».

أغلق كتابه ووضعه على المنضدة بجانبه: «حسناً، هيا يا حبيبتي!».

ترددت ثم قالت: «أنت لا تفهم وضعي. . إنني لم. . أعني، أنا لا أقوم بعلاقة عابرة».

ـ ومن قال إنها ستكون عابرة؟ والآن، تعالي. أم عليّ أن أحضرك بنفسي؟.

فكرت أنها كانت مجنونة حين ظنت أن بإمكانها القيام بهذا الأمر ببساطة

وكأنه مهمة روتينية عادية.

سارت نحو السرير وهي تشعر بقلبها يخفق كالمجنون وبصدرها يتقلص بشدة. أتراه نتيجة حبسها أنفاسها! استلقت على السرير، متشبثة بحافة الفراش، حانية الرأس، تاركة شعرها يغطي وجهها الملتهب، ثم انتظرت.

سمعت حركته وشعرت به يركع خلفها على السرير ويمدّ يده ليزيل خصلات شعرها عن عنقها، ثم ضمها إليه فاستجاب قلبها له استجابة عمياء.

أخذ يردد بشغف: أدريان. . أدريان.

كان صوته أجشّ لجوجاً ووجهه حائراً لكن هذه الحيرة ما لبثت أن تحوّلت إلى شيء من عدم الفهم والرعب.

عندما ابتعد عنها، كانت الدموع تنساب على وجنتيها. . رأته من بين دموعها ينظر إليها نظرة طويلة قبل أن يبتعد تاركاً مسافة بينهما على السرير.

وطال الصمت وطال ولكنه قطعه أخيراً: «لماذا لم تخبريني أدريان أنك عذراء؟».

ـ لم أظنك راغباً في معرفة ذلك.

ـ لكنك على خطأ. . فهذا يشكّل فرقاً كبيراً.

ـ قالت وهي تسحب أنفاسها بجهد: «لا، لا أدري كيف. . أليس هذا ما تريده؟».

قال بغضب: «كان بإمكاني على الأقل أن أهوّن عليك الأمر».

عاد الصمت يرزح من جديد. قال: «خلتك على علاقة مع بيرس مندوزا».

ـ لقد قال بيرس إن علينا انتظار الزفاف.

ـ وكان على حق.

أدارت رأسها وأخذت تنظر إليه. .

قالت بلهجة صارمة: «لكنه لم يكن يعني ذلك. كان يريد فقط شخصاً

يصلح له المنزل بكلفة قليلة. لم يكن يحبني. . . بمكنني أن أرى ذلك الآن».

ـ إذن فنحن الاثنين أكثر حكمة مما كنا عليه قبل برهة.

وسار نحو الحمام حيث غاب عدة دقائق ثم رجع وهو يعقد حزام روب الحمام. قال وهو ينظر إلى الروب الحريري الذي ترتديه: «هل اشتريت هذا لأجل بيرس؟».

قال ذلك وعيناه كالثلج، فرفعت رأسها: «نعم، لكنني أرتديه الآن لأجلك».

فلوى شفتيه: «غريب! على كل حال سأدخل الحمام لأملأ الحوض لك».

ـ لا أريد حماماً. أريد شيئاً من النوم فقط.

ـ أهذا ما تريدينه؟ حسناً هيا ارتدي ثوبك هذا.

نظرت إليه بارتباك: «ألا تريدني أن أبقى هنا؟».

فقال بابتسامة باهتة: «لقد سببت لك ما فيه الكفاية من الضرر، والواقع أن معاشرة العذارى أمر لا يروق لي. لذا سأعمد منذ الغد لألغي هذا الزواج والأفضل أن تغادري هذا المنزل غداً أيضاً».

جمدت في مكانها تنظر إليه: «ولكن. . . ولكن يا كاي. . .».

وارتجف صوتها وهي تبحث عبثاً عن الكلمات المناسبة، فسكتت. رفع حاجبيه: «هل تفكرين في أنني إذا ألغيت زواجنا، لن أدفع لك المال؟».

شعرت باكتئاب فظيع. . هذه الفكرة لم تطرأ على ذهنها. ومحاولتها الاحتجاج كانت مؤسسة على أمور أكثر تعقيداً، ما زالت تكافح في سبيل فهمها وتخاف من مواجهتها.

أضاف مطمئناً: «حسناً، لا تقلقي يا حبيبتي. ستحصلين على المال».

كان صوته عفوياً وهو يقول ذلك. وشعرت أن جوابه أكثر إيلاماً وإذلالاً مما لو كان صفعها على وجهها. لقد توقعت أن يطمئنها، لكنها، بدلاً من ذلك، ووجهت بالنبذ. لم يكن بيرس يريدها، وها هوذا كاي

يطردها! . وفجأة، ولسبب غير مفهوم، شعرت وكأن شيئاً في أعماقها يموت. يا إلهي، ما الذي حدث لي؟!.

ليس بإمكانها التفكير في ذلك الآن، المهم الآن هو أن تخرج من هذه الغرفة، بشكل ما، محتفظة بالبقية الباقية من كرامتها. وعليها أن تخرج قبل أن تشرع في التضرع إليه، أو قبل أن تنهار أعصابها فتأخذ بالبكاء كطفلة، وهذا ما قد تندم عليه في ما بعد بمرارة قاتلة. وهنا قررت ألا تعلمه بحقيقة شعورها مطلقاً. فاستجمعت شجاعتها ووقفت باسمة: «شكراً! ذاك يجعل الأمر، بشكل ما، يستحق الجهد».

ثم سارت نحو الباب وخرجت من غير أن تنظر خلفها.

***

٨ ـ ثمن الغلطة

سارت أدريان ببطء وثبات إلى غرفتها. وعندما أغلقت الباب خلفها، انهارت وهي تشهق طالبة الهواء كأنها في نهاية سباق مجهد. إنه الإرهاق حل بها نتيجة ضغط العمل طوال الأسبوع الماضي، فسبّب لها نوعاً من الجنون. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

يمكنها أن تبرّر كل شيء منطقياً، ويمكنها أن تقدم مجموعة من الأعذار. ولكن الحقيقة تبقى ماثلة أمامها، وهي أنها ذهبت الليلة إلى كاي لأنها كانت ترغب فيه فعلاً، بقلبها وروحها وعقلها أيضاً. وتملكتها الكآبة.

حتى تذكرها العقوبة التي كان فرضها عليها في صغرها لم يؤثر على تلك المشاعر لحظة واحدة. وتساءلت بعجب: «لم أستطع تذكر ذلك قط من قبل... ولم أكن أريد التفكير في الألم الذي سببه لي في الماضي، فلماذا اخترت القيام بذلك هذه الليلة من دون كل الليالي؟ لماذا أعذّب نفسي مرة أخرى؟ هذا شيء غير مفهوم!».

بالرغم من كل تلك الذكريات، وكل أسباب الكراهية... فقد ذهبت إليه.. قدمت إليه نفسها، ومع ذلك طردها! طردها بمنتهى القسوة!. لم يكن ثمة فائدة من أن تذكر نفسها بأنها أصبحت الآن حرة في الرحيل، وأنها بذلك تكون قد هزمته. فإذا كان هذا نصراً، فكيف تكون الهزيمة إذن؟!.

خلعت معطف النوم الفاخر وكوّمته كرة قذفتها فوق الخزانة. لا تريد

www.liilas.com / روايات رومانسية www.romancia.com

أن تراه ثانية. وغداً ستلقي به في المدفأة لتأكله النيران!. تملكها شعور غريب. ما تزال رائحته على بشرتها!.. فإذا أرادت أن تغمض عينيها بسلام، عليها أن تتخلص من هذه الرائحة أولاً.

لقد سمحت للذكريات بأن تتملكها أكثر مما ينبغي. وهي الآن ستتذكر لمسات كاي.. قبلاته، لتلوّن أحلامها وتحيل ساعات يقظتها إلى أشواق عاجزة. ومن الخداع أن تحدث نفسها بأن ذلك نتيجة إحباط شديد، وأن أي رجل كان بإمكانه أن يحدث في نفسها هذا التأثير!.

كان على الدوام جزءاً من حياتها. فقد كان صديقها، ثم عدوّها، ثم زوجها وهو منذ هذه الليلة حبيبها. يبدو وكأن كل لحظة في حياتها كانت تقودها إلى هنا. والآن، انتهى كل ذلك!. وقفت تحت «الدوش» وأخذت تدعك جلدها بالليفة حتى شعرت بوخز في جميع مسامها. ثم جففت نفسها، وارتدت معطف حمامها القديم. غير أن التململ الشديد منعها من الذهاب إلى الفراش، فتكورت في مقعد، جاعلة قدميها تحتها، محاولة تهدئة نفسها، والتفكير في ما عليها أن تقوم به.

لقد اتضح أمر مستقبلها، فلديها بيتها الآن، وعملها أصبح في مأمن، وبإمكانها متابعة طريقها. وهذا ما كانت تريد إنجازه. ولكن كان عليها أن تدفع، لقاء استقرارها الجديد، ثمناً هو العذاب بعينه.

عليها أيضاً أن تفكر كيف تستطيع متابعة حياتها بهدوء وراحة بالها، فيما كاي يعيش على بعد خطوات منها. قررت بحزم أنّ تجنُّب المنزل «غرانج» ليس بالأمر الصعب. صحيح أنه يقوم في الطريق الرئيسي خارج القرية، لكن هناك طرق أخرى يمكنها أن تستعملها، خصوصاً في عطلات نهاية الأسبوع عندما يكون كاي موجوداً.

لكن هذه ليست المشكلة الرئيسية. إذ عليها، بشكل ما، أن تتقبل فكرة أن المنزل، لم يعد جزءاً من حياتها، وأن ما حدث لها تحت سقفه مع هذا الرجل أصبح الآن من الماضي ولم يعد ذا أهمية... وإلا، ستمضي بقية حياتها تفكر في ما كان يمكن أن يحدث وهذا شيء لا يُطاق.

وكررت (لا يطاق)، وعند ذلك فقط أدركت أنها نطقت بهذه الكلمة بصوت مرتفع، عندما سمعت نبرة الوحشة في صوتها.

* * *

عندما أحضرت لها الصينية، لم تدهش أدريان وهي ترى القهوة مصحوبة بصحن بيض مقلي وخبز محمص أكلته طائعة. عندما انتهت، أقبلت مدبرة المنزل لتنظيف المائدة.

ـ أرجو أن يتحسن الجو في عطلة الأسبوع لأجل ضيوف السيد هادن.

فالتفتت إليها أدريان بدهشة: «وهل يتوقع ضيوفاً؟».

ـ نعم يا سيدتي. إنهم معارف عمل، كما فهمت. السيد هادن أعدّ القائمة النهائية بعددهم. يمكننا أن نقرر عدد الغرف وأنواع الطعام.

وأومأت بسرور كأنها مُنحت فرصة ممتعة طال انتظارها..

تنهدت أدريان وهي تفكر في أنه كان عليها إعلامها بالأمر، ثم عادت إلى تأمل المطر: كان عليّ أن أنذرها بأنني لن أكون موجودة هنا! ولا شك أنها ستتساءل كثيراً عن هذا الوضع بين شخصين تزوجا حديثاً.

لم يكن ذلك مهماً، طبعاً. أضافت ذلك باكتئاب. فالسيدة ويتلي بإمكانها مواجهة منزل مليء بالضيوف.

أما أنا. فسأكون آنذاك أتابع حياتي الخاصة من جديد. سأبدأ بحزم أمتعتي حالاً!.

لم يكن لديها فكرة عما ستقوله لزيلدا. أخذت تفكّر في ذلك وهي تتجه نحو السلم.

توقفت وهي تسمع صوت جرس الباب. ونادت: «لا عليك، يا سيدة ويتلي، سأفتح أنا الباب».

كانت شاحنة تحمل أثاثاً، متوقفة أمام الباب، ورجل يبتسم لها: «صباح الخير يا آنسة لاندر. لقد أحضرت سريرك!».

حدقت فيه لحظة من دون أن تفهم، ثم هبط عليها الإدراك.

ـ آه، يا إلهي!... السرير ذو الأربعة أعمدة... لقد.. لقد نسيت

كل شيء عنه!.

إنه السرير الذي اشترته منذ أسابيع، لها ولبيرس، وقد أعاده «فرايد ديرونت» بعد إصلاحه.

قالت بابتسامة مرغمة: «فرايد! كان عليّ أن أتصل بك. لقد تغيرت الأمور مع الأسف، فقد بيع المنزل «غرانج» والمالك الجديد لا يريد سريراً بأربعة أعمدة. ولهذا أريدك أن تبيعه لأجلي... في قاعة العرض عندك».

فتح فرايد فمه ذاهلاً: «هذا مؤسف! فهو سرير ممتاز وقد أصلحته بشكل جيد. هل السيد واثق من أنه لا يريده؟».

ـ واثق تماماً. لن تتعب في بيعه، يا فرايد....

ـ في بيع ماذا؟.

قاطعها صوت كاي بغلاظة. لقد وصل لتوّه من خلف زاوية المنزل، من دون أن يراه أحد، فوقف على كومة من الحصى ويداه في جيبي بنطلونه.

استدار فرايد ديرونت إليه بلهفة: «إنه سرير رائع بأربعة أعمدة يا سيدي، وهو أثري حقيقي. كانت الآنسة لاندر عثرت عليه لأجل المنزل هذا، لأجل غرفة «السيد» الرئيسية، كما فهمت. فإذا كنت السيد الجديد فهو يصلح لك، كما أرى».

استقرت عينا كاي على أدريان بفتور، وكانت هذه تقف بالباب وقد توهّج وجهها واتسعت عيناها انزعاجاً.

ساد الصمت لحظة، ثم قال: «طبعاً، هل لك أن تدخله من فضلك؟ ربما بإمكان رجالك أن ينقلوا السرير الحالي إلى غرفة المخزن».

ـ بكل سرور يا سيدي. رأيك هو الصواب.

لم تصله ابتسامة كاي وهو يقول له: «سأعتمد عليك في ذلك، يا سيد.. ديرونت. والآن، فلندخل من تحت هذا المطر. سأطلب من مدبرة منزلي أن تصنع القهوة لنا جميعاً».

وعندما مرّ بجانب أدريان، أمسكت هذه بذراعه، وكان السيد ديرونت قد اتجه إلى شاحنته لكي يشرف على إنزال الحمولة، فلم يكن ثمة أحد في

مرمى السمع، فقالت بسرعة: «كاي. أنت لا تريده.. لا يمكنك..».

فرفع حاجبيه: «لمَ لا؟ هل لأنك كنت تريدين أن تُفرغي عواطفك المحمومة نحو بيرس عليه؟ (وهز رأسه بشيء من السخرية) هذا لن يزعج أحلامي يا أدريان».

قالت وهي تلوّح بيدها: «إذن لا شيء عندي لأقوله!».

ـ هذا ما لا أوافقك عليه. تعالي إلى غرفة المكتبة بعد ربع ساعة، من فضلك. أرجو أن تخبري جين عن القهوة، فأنا صاعد لتغيير ملابسي.

هذا كلام رجل تعوّد الطاعة من مستخدميه، وليس كلاماً يوجَّه لزوجة.. أخذت أدريان تفكر في ذلك غاضبة وهي تبحث عن مدبرة المنزل. يبدو أنه أكثر استعداداً منها لنسيان كل ما جرى أمس. وهذا حسنٌ، لا بل ممتاز في الواقع. سيبلّغها الآن بأنه سيبطل زواجهما وسيؤكد لها أنه سيدفع عنها ديونها كلها. وإذا هي اجتهدت ستكون خارج «غرانج» قبل الغداء.

تحدثت إلى السيدة ويتلي، ثم صعدت إلى غرفتها حيث أخذت تخرج ملابسها من الخزانة، وتضعها في حقيبتها، غير حافلة بالأصوات الصادرة من الناحية الأخرى للممرّ، من الرجال الذين كانوا ينقلون السرير إلى غرفة النوم الرئيسية ويضعونه هناك.

عندما انتهت ربع الساعة، نزلت إلى غرفة المكتبة وطرقت بابها. وجاءها صوت كاي بنبرة محايدة: «ادخل!».

كان جالساً خلف مكتب أنغس ستريتون الكبير، يطالع بريد الصباح. وعندما رفع عينيه، توقفت أدريان عن السير رافعة يدها إلى عنقها مجفلة. فتوتر فمه الحازم: «يا إلهي! لا يمكن أن أكون قد فاجأتك هذه المرة، لأنك تعلمين بوجودي هنا!».

ـ آسفة! إنه منظرك فقط وراء المكتب حيث كان «أنغس» يجلس دوماً. ظننتُ للحظة أنني أمام شبح!.

ـ ليس المفروض أن يكون هذا المنزل مسكوناً بالأشباح.

قال ذلك بهدوء وعدم اكتراث بالغبن. فقالت: «إنه ليس كذلك،

www.elromancia.com

وليس هذا ما عنيته».

ـ آه فهمت. ليس لديّ الحق في الجلوس في هذا البيت، أو على هذا المكتب. وإذا كان ثمة عدالة، لكنتُ الآن أمضي حكماً بالسجن طوال الحياة لأنك تظنين أنني أذيت طفولتك وسرقتك! أليس هذا ما تريدين قوله؟.

قال كلماته هذه بازدراء، فأجابته: «صدّق أو لا تصدّق، فأنا لم أكن أعني هذا أيضاً. جئت.. جئت لأخبرك بأنني جاهزة لمغادرة البيت خلال ساعة، إذا لم يكن لديك مانع».

ترك الرسالة التي كانت بين يديه، ورمى بالغلاف في سلة المهملات، ثم نظر إليها بعينين جامدتين، وقال: «اجلسي، يا آدي. علينا أن نتكلم».

بقيت واقفة: «قيل كل ما هو ضروري ليلة البارحة. فقد قلت لي إنّ عليّ مغادرة المنزل».

ـ أطلب منك الآن البقاء شهراً آخر قبل فسخ الزواج.

ـ وما فائدة بقائي هنا؟.

ـ أظنك تشيرين إلى خيبة الأمل الليلة الماضية. وعلى أي حال، كما سبق أن أخبرتك، يمكنني أن أؤكد لك أن ذلك لم يعد ذا أهمية.

سكت لحظة، ثم عاد يقول: «لعل جيني أخبرتك بأنني سأستقبل ضيوفاً طوال عطلة الأسبوع المقبلة. وهم رجال أعمال مع زوجاتهم، وأنا بحاجة إلى زوجة تستضيفهم. وأتمنى عليك أن تقومي بهذا الدور».

ـ أعطني سبباً وجيهاً واحداً يجعلني أقبل هذا.

فقال برقة: «يمكنني أن أذكر ألوفاً. لكنني أحب أن أعتقد أنك من كرم الأخلاق بحيث تساعدينني في هذا الأمر».

ـ اجعل المدة أسبوعاً إذن، فأفكر في الأمر.

فهز رأسه: «بل يجب أن تكون شهراً، ولا نقاش في الأمر!».

ـ ولكن لماذا؟ أريد أن أستقر في حياتي!

ـ استقرارك يهمني أيضاً؛ فهدئي من روعك وانزعي سلاح الحرب!

وألقى عليها نظرة ساخرة: «أعرف أن لديك شعراً أحمر يا أدريان، فلا

حاجة بك لإظهار هذه الحقيقة!».

فحملقت فيه: «شعري بني محمرّ...».

ثم سكتت مدركة أنه أوقعها في الفخ. تذكرت، وقد كف قلبها عن الخفقان، كيف كان يسميها «الجزرة» و«الصهباء» في ما مضى إلى أن تتوتر أعصابها فتلقي بنفسها عليه ثائرة.

رأت شفتيه تنفرجان عن ابتسامة عريضة راضية، فوجدت نفسها، لدهشتها، تبادله الابتسامة نفسها. قالت: «يا لك من وغد!».

ـ حسناً، يكاد هذا يكون ملاطفة منك، بالمقارنة مع اتهاماتك لي.

واستند إلى ظهر كرسيه ومضى ينظر إليها من تحت جفنيه: «إذن، هل ستبقين، يا آدي؟ طبعاً لن أضغط عليك..».

فقالت بمرارة: «لكنك ستفعل لو أردت».

ـ ربما، ولكنني أفضل أن توافقيني من تلقاء ذاتك. هل أطلب منك الكثير حقاً؟.

أكثر مما تعلم... خطرت لها هذه الفكرة وسرعان ما نبذتها.. أخذت تنظر إلى يديها المتشابكتين المتوترتين.

ـ لا أظن ذلك. وعلى كل حال، لن تكون هنا إلا أثناء العطل الأسبوعية.

وسرعان ما استدركت في نفسها: «أواه، يا إلهي!... ما الذي جعلني أقول ذلك؟».

ونظرت إلى كاي متوجسة فرأت وجهه يتوتر: «بل سأكون هنا، كلما شاء مزاجي. فهذا هو بيتي الآن، ولن أبقى بعيداً مراعاة لمزاجك يا أدريان!».

وسكت لحظة: «ثم إن لدي الآن «فاتورة» إضافية عليّ أن أدفعها وهي ثمن السرير الذي نسيت أمره».

فقالت بصوت مختنق: «ما كان عليك الاحتفاظ به. لقد كنت مستعدة تماماً لإعادته».

ـ كنت متشوقة تماماً للقيام بذلك. مسكينة يا أدريان، هل بعث فيك

www.elromancia.com

كثيراً من الذكريات التعسة؟ .

ـ لم يبعث أية ذكرى على الإطلاق، كما تعلم.

ومرة أخرى، تمنت لو أنها لم تتلفظ بهذه الكلمات. نهض واستدار حول المكتب، ثم توقف ينظر إليها وقال: «هل أنت بخير، يا أدي؟».

فاحمر وجهها: «أنا بخير. هل يمكننا أن ننسى الآن هذا الأمر؟».

فلوى شفتيه: «يمكنك ذلك، لكنني لن أجد الأمر سهلاً».

ساد بينهما صمت، ثم مدّ يده خلف ظهره يلتقط ورقة من على المكتب: «هل هذا من عملك؟».

فقالت مسرورة لتغيير الموضوع: «نعم. هذا شيء كنت أخططه أمس.. تخطيط لحديقة المطبخ. ما كان لي أن أنساه على المكتب».

ـ إنه جيد. عندما يصل المتعهدون الأسبوع القادم، أريدك أن تريهم إياه... وتجعليهم ينفذونه عملياً.

فقالت بسرعة وهي تنهض واقفة: «حديقة المطبخ مشروع طويل الأمد... لا أستطيع التورط فيه».

منحها ابتسامة جافة، ثم قال بلطف: «ولكنك سبق أن تورطت يا أدريان! إنك تعلمين هذا، وكذلك أنا (وعاد إلى مكتبه) سأراك على الغداء».

أغلقت أدريان باب المكتبة خلفها، ثم تنفست بعمق. يبدو أنها، بالرغم من كل شيء، قد ألزمت نفسها بقضاء شهر آخر تحت سقف كاي. أربعة أسابيع! إنه ليس الحياة بطولها.. إلا إذا...

وصعدت إلى غرفتها لكي تخرج ملابسها من الحقيبة.

عندما وصلت إلى أعلى الدرج، حياها فرايد ديرونت ببشاشة: «سريرك يبدو رائعاً، يا سيدتي!».

ـ آه، هذا حسن!

سارت إلى غرفة كاي رغماً عنها، ثم دخلتها. كانت مدبرة المنزل هناك مشغولة بالملاءات وأكياس الوسائد. مرّت بيدها على أحد أعمدة السرير:

«إنه رائع، أليس كذلك؟ لم يعد بحاجة إلا إلى الناموسية».

فقال ديرونت: «ستحضر سريعاً. إن شريكة السيدة تصنعها بشكل رائع، أليس كذلك؟».

أشارت أدريان برأسها موافقة. فسألتها السيدة ويتلي بلهفة: «ومتى تنتهي منها؟».

ـ لقد... لقد انتهت فعلاً. ويمكنني الذهاب لإحضارها.

فقالت مدبرة المنزل بسعادة: «سيكون هذا رائعاً!».

ـ سأذهب الآن إذن. (ونظرت إلى ساعتها) هل لك أن تخبري السيد هادن بأنني لن أكون هنا للغداء؟.

* * *

عندما وصلت أدريان إلى الكوخ، كان المطر قد توقف وظهرت الشمس الشاحبة من بين الغيوم.

لقد غابت عنه أقل من أربع وعشرين ساعة، ومع ذلك بدا الكوخ أشبه بالمهجور. قالت في نفسها: أسبوع واحد فقط، ويعود الكوخ إليّ. وسآتي كلما تمكنت من ذلك، فأضع في أنحائه أزهاراً ندية، وأفتح النوافذ.

جمعت بريدها، ودونت المكالمات التي وجدتها في المجيب الآلي وأعدّت لنفسها قهوة لتشربها مع شطيرة. أقفلت الباب، وسارت إلى شقة زيلدا عبر الفناء. طرقت الباب، وسرعان ما فتحته زيلدا هاتفة بدهشة: «مرحبا! لم أكن أتوقع رؤيتك اليوم!».

فقالت أدريان بابتسامة متكلفة: «فكرت في الحضور لآخذ الناموسية التي صنعتها للسرير ذي الأربعة أعمدة.. وقد وصلت للتو».

حدقت زيلدا إليها: «ألم تصرفي النظر عنها؟».

فقلبت أدريان شفتيها: «لقد نسيت!».

فقالت زيلدا ضاحكة: «أظن هذا من قبيل نسيان ما لا ترغب فيه!».

ـ لا شيء من هذا. كل ما في الأمر أنني مشغولة البال. والآن، هلاّ أعطيتني مفتاح غرفة العمل؟.

سارت زيلدا معها وساعدتها على نقل القماش إلى سيارة الجيب. ثم قالت مقطبة الجبين: «هل أنت بخير؟».

فأجابت أدريان كاذبة: «بأتم خير. كل شيء على ما يرام!».

ـ أحقاً؟ لماذا لا أعود معك وأساعدك في تعليق هذه الأشياء؟ إنك تعلمين حالك مع السلالم المتنقلة.

ـ لم يعد ذلك يحصل. فقد خلّفت كل ذلك الهراء وراء ظهري.

ـ دعيني إذن آتي معك لأسلّيك.

فصعدت أدريان إلى الجيب: «أليس هذا اليوم الذي سنشترين فيه الكلب لكيفين؟».

ـ يمكن أن نرجئه إلى الغد.

فهزت أدريان رأسها: «كلا! لقد انتظر ابنك طويلاً. سآتي لرؤيتكما قريباً جداً».

قطبت زيلدا حاجبيها وقالت: «ذات يوم، أريدك أن تخبريني بكل ما يجري الآن».

يا ليتني نفسي أعلم هذا! أخذت أدريان تحدث نفسها وهي تنطلق في سيارتها.

بدا المنزل «غرانج» خالياً حين وصلت. حملت القماش إلى غرفة كاي على عدة دفعات. وبعد ذلك فتشت خارج المنزل عن سلم متنقل. أخذت تطمئن نفسها، وهي تحمله إلى الطابق العلوي، بأنه ليس عالياً جداً ثم صعدت عليه بحذر، وهي تعض شفتها، ولفافة القماش على كتفها.

تمتمت تحدث نفسها: «لا تنظري إلى أسفل!... فقط لا تنظري إلى أسفل!...».

بعد ذلك بعشر دقائق، بالرغم من كل جهودها، لم تستطع منع زوايا السرير من الحركة بينما كانت تحاول تثبيت القماش فيها.

ـ تباً لهذا!.

أخذت تتمتم بذلك وهي تميل إلى الأمام لتسوّي القماش، فإذا بها تشعر

بالسلم يتأرجح وتفقد توازنها.

أطلقت صرخة قصيرة، وتشبثت بأقرب أعمدة السرير وإذا بها تسمع صوت كاي يقول مؤنباً: «ما الذي تضعينه بحق الـ...؟!».

التفتت فرأته ينظر إلى أعلى. وفجأة، تملكها الكابوس القديم، وتحولت السجادة الخضراء إلى عشب، وأصبحت طفلة قد ملأها الرعب خشية السقوط من ارتفاع شاهق.

صرخت بفزع: «لا تلمسني! لا تلمس السلم!».

فقال بصرامة: «لا تكوني حمقاء، يا آدي! انزلي ولا تخافي!».

ـ كلا!...

وعندما أمسكها من خصرها، أخذت ترفسه بقدميها.

أخذ يشتم فيما كان يرفعها عن السلم، ويديرها بين ذراعيه فيسمّرها إلى جسمه في مواجهة عينيه، إلى أن كفّت عن المقاومة، وتلاشت شهقاتها القصيرة المتتابعة.

قال بجفاء: «إنك لا تدركين ما تفعلين، أليس كذلك، يا آدي؟».

ثم أخذ ينزلها إلى الأرض ببطء وهو ينظر في وجهها. جرى الدم حاراً في عروقها، ومال رأسها إلى الخلف.

فجأة، سمعا وقع خطوات سريعة تقترب، ثم شهقة وتمتمة اعتذار. فأدارت أدريان رأسها لترى مدبرة المنزل وهي تتراجع بارتباك.

قال كاي: «جين. انتظري دقيقة!».

ووضع أدريان على الأرض برفق، ثم التفت إلى مدبرة منزله التي كانت تقف بالباب مترددة: «هل بمكنك أن تعلقي هذه الستائر، من فضلك؟. السيدة تخاف من الأماكن العالية».

وابتسم لهما معاً، ثم خرج من الغرفة.

تقدمت مدبرة المنزل منها معاتبة: «كان عليك أن تأتي إليّ، يا سيدتي! لماذا أنت شاحبة الوجه بهذا الشكل؟».

ـ خلتُ أنني سأسقط!

www.elromancia.com

قالت أدريان ذلك وكأنها تحدث نفسها، فيما عيناها تحدقان في الباب. صورة كاي وهو يسير مبتعداً عنها، ما زالت في خيالها. تلك الخطوات الواسعة تعرفها جيداً. لم تكن تراها للمرة الأولى، فما الذي جعلها تشعر بالانزعاج لمرآها الآن؟.

قالت السيدة ويتلي بحزم: «سأقف أنا إذن على السلم بينما تناولينني أنت كل شيء».

أخذت تثرثر بأشياء تافهة وهي تعلق الستائر. أثناء ذلك، كانت أدريان تجيبها من دون وعي، محاولة العثور على تفسير منطقي لشعورها بعدم الارتياح، ذاك الذي أثاره في نفسها خروج كاي المفاجىء.

عندما انتهى كل شيء، ونال إعجابهما، وتوارت مديرة المنزل بالسلم، سارعت أدريان إلى الغرفة التي اتخذتها لها بالاتفاق مع كاي، وتكورت على الأريكة بجانب النافذة وأخذت تنظر إلى الحديقة.

لقد سبّبت الرعب لنفسها. ولكن ذلك انتهى الآن. فقد خفّ كاي إلى إنقاذها، تماماً كما كان يفعل في الماضي البعيد. تذكرت كيف كان ينزلها من بيت الشجرة. حاولت استعادة الصورة حين تركها وحدها في أعلى الشجرة، كما ظنت بمرارة. قد يدّعي بأنه لم يفعل ذلك، ولكنه لا يعلم بأنها نظرت إلى أسفل ورأته.. وهو يبتعد.

ولكن... ولكن ذلك كله كان خطأ! أدركت الآن فجأة وهي تقطب جبينها. فالشخص الذي رأته يبتعد حينذاك، كانت خطواته أقصر بكثير، كما كانت طريقة سيره مختلفة! ولم يكن بالطول ذاته!.

إنني أعرف كاي! كنت دائماً أعرف كل شيء عنه. وهذه المعرفة ظلت تلازمني طوال هذه السنوات، فكيف إذن لم أستطع أن أفهم أنه لم يكن هو على الإطلاق... وإنما شخص آخر يرتدي نفس سترته الرمادية؟.

لا بد أنه بيرس، بالتأكيد! قررت ذلك بهدوء غريب. بيرس... صاحب «غرانج» في المستقبل... الذي كان يكره كاي، ويعتبره دخيلاً. بيرس الذي تعمد أن يسحق منظار كاي المكبّر، وكان مصمماً على هدم

ملجأه الخاص. الذي أراد إلصاق التهمة به لكي يطردوه من المنزل.

ولكن لماذا؟ لماذا مشاعر الكراهية المتطرفة هذه نحو ابن مديرة المنزل؟.

إنك لا تدركين الأمر. هذا ما قاله كاي لها منذ قليل. لكنني أدرك الآن. أصبحت أعرف بالضبط كيف حدث ذلك وربما يستطيع كاي نفسه أن يخبرها بالسبب. عليها أن تجده وتشرح له كل شيء عن خداعها لنفسها طوال ذلك الوقت، وتطلب منه الصفح... لا وقت أفضل من هذه اللحظة... أخذت تفكر في ذلك وهي تنهض عن الأريكة.

هبطت الدرج بسرعة، قبل أن تغير رأيها، ثم قرعت باب المكتبة. لم تسمع جواباً، فقرعت مرة أخرى بصوت أعلى.

ـ سيدة هادن كنت قادمة لأخبرك بأنني وضعت الشاي لأجلك في غرفة الاستقبال.

ـ آه، شكراً!.

وترددت: «هل خرج السيد هادن ثانية؟».

نظرت المرأة إليها بشيء من الأسف والاستغراب فعلى ما يبدو أن هذه المرأة لا تفهم أبداً هذين الزوجين الغريبين: «نعم يا سيدتي! كان عليه، لسوء الحظ، أن يعود إلى لندن. طلب مني أن أقدم اعتذاره إليك وأخبرك بأنه سيراك في عطلة الأسبوع القادم».

فقالت أدريان بهدوء: «نعم، بالطبع عندما يحضر ضيوفه».

ورسمت ابتسامة على فمها: «شكراً يا سيدة ويتلي».

بدا لها الشاي لذيذاً. شطائر صغيرة، مربى وقشدة، لكن أدريان لم تستطع أن تأكل شيئاً، لأن كاي لم يسافر إلى لندن كالمعتاد.. وإنما هجرها. تملكت الوحشة نفسها... لقد ظهرت لها الحقيقة بعد فوات الأوان.. وها هو ذا قد رحل. لقد خسرته! وجرت دموعها سخية تحرق وجنتيها.

* * *

٩ ـ خداع الماضي

قالت زيلدا بغبطة: «إن الطلبات تنهال علينا كالمطر!».

أجابت أدريان وهي تراجع التقديرات: «هذا ما يبدو. ما هو يا ترى، سبب هذه الفورة المفاجئة في العمل؟».

ـ بطاقات عيد الميلاد ظهرت في المتاجر، رغم أننا ما زلنا في أيلول. ويريد الناس إعادة النظر في «ديكور» منازلهم قبل أن يتوافد الأقارب.

وسكتت لحظة ثم عادت تقول: «لن يكون ثمة مشكلة في المنزل «غرانج». أرجو أن يعجب ضيوف كاي به».

فقالت أدريان بجفاء: «وكذلك أنا، لكنني أشك في ذلك. إذ يبدو أنهم جميعاً من الطبقة العليا. لقد أرسلت سكرتيرة كاي بالفاكس لائحة بأسمائهم واهتماماتهم، ما يحبون وما لا يحبون.. لكي أضع برنامج الضيافة».

ـ آه، الحمد لله أنك أنت المسؤولة وليس أنا!.

ـ ليس العبء ثقيلاً.

ووضعت أدريان التقديرات في مغلف وأغلقته: «يريد الرجال أن يلعبوا الغولف، وهذا أمر سهل. أما الزوجات، فواحدة منهن مجنونة بلعب التنس، وأخرى بالسباحة، والثالثة بجمع التحف... وهكذا رتبت اشتراكاً مؤقتاً في «نادي الريف»، وزيارة إلى معرض للتحف صباح الأحد».

وقطبت جبينها قليلاً: «وهناك بعض المدعوّين من أبناء المنطقة إلى حفلة

كوكتيل مساء السبت».

ـ هل هناك شخصيات هامة؟.

ـ أرسلت «سالي بارفيه» الدعوات من مكتب لندن منذ بعض الوقت. أغلبهم من الجيل الماضي كما أظن. الناس الذين كانوا يعرفون أنغس ستريتون. وهذا شيء غريب، في الواقع!.

ـ لعلها مبادرة ذكية منه ليخطب وِدّ الشخصيات الهامة؟!.

قالت زيلدا هذا متسائلة وهي تضع كتاب عينات الأقمشة التي كانت تتفحصها: «وعلى كل حال، أرجو أن يقدّر زوجك جهودك. متى سيعود؟».

ـ غداً حوالي الظهر، على ما أظن. سيبدأ الضيوف بالتوافد عصراً، وسيكون هناك للترحيب بهم.

وترددت قليلاً: «أشعر أنني أتركك في وقت الشدة يا زيلدا! لقد أخذ العمل بتكوّم».

منحتها زيلدا ابتسامة تضامن: «إنني أثق بكلمتك في هذا الشأن، يا حلوتي!».

حملت أدريان كومة المغلفات: «سآخذ هذه إلى البريد، ثم أعود سريعاً. أريد أن أعدّ شيئاً أرتديه مساء غد. لا أتوقع منافستهن، ولهذا فإن ثوبي الأسود الجديد، يفي بالغرض!».

ـ أحب أن أرى غرضاً من وراء لبسه!.

وغمزت بعينها وهي تطلق ضحكة عابثة، فقذفتها أدريان بكرة من الورق.

كان كيفين يلعب في الفناء الخارجي مع جروه الذي سمته زيلدا «باغي». لقد أصبح صبياً مختلفاً هذه الأيام، كما لاحظت أدريان، وهي تقف لتنظر إليهما بعطف. وبعد، ربما كان ثمة فائدة من وراء الأسابيع الماضية المشحونة.

لقد انتظرت بقية عطلة الأسبوع الماضية، آملة أن تتلقى خبراً ما من

www.elromancia.com

كاي، يفسّر فيه رحيله المفاجىء لكنها لم تتلق شيئاً. والاتصال الوحيد هذا الأسبوع كان بواسطة سكرتيرته الخاصة.

صاح بها كيفين عندما رآها: «انظري يا آدي. . إن «باغسي» يقوم بشيء غريب وينقلب على ظهره هكذا!».

أخفت أدريان ابتسامتها عندما انقلب باغسي على ظهره وأخذ يلوّح بمخالبه في الهواء. .

ـ آه! . . . سآخذه الآن للنزهة. هل تأتين معنا يا آدي؟.

قالت: «عندما أتمكن من ذلك».

فقال بإلحاح: «إنك تقيمين في «غرانج» الآن، لماذا؟ كنت مسروراً عندما كنت تقيمين في الكوخ. متى تعودين؟ أنا أشتاق إليك!».

ووضع ذراعيه حولها ودفن وجهه في تنورتها.

أخذت أدريان تلامس شعره: «وأنا أشتاق إليك أيضاً. سأعود قريباً».

سمعت صوتاً خفيفاً فرفعت بصرها. كان كاي واقفاً على بعد ياردات قليلة، ينظر إليها، بملامح هادئة كئيبة.

قالت، بينما خفقات قلبها تتسارع: «ماذا تفعل هنا؟ إنك مبكر بيوم! . .».

ـ لم أجدك في المنزل، فجئت لأتأكد من أنك لم تهربي.

أبعدت أدريان برفق يدي كيفين المتشبثتين بها.

ـ لا تخشى إذ سأبقى الزوجة حتى إشعار آخر.

ـ يسرني أنك ما زلت على كلمتك. . . وعلى كل حال، فهذه العطلة الأسبوعية هامة جداً بالنسبة إليّ. ودورك الأول هو مضيفة منزلي.

قالت: «أنا الآن زوجتك وسأقوم بكل واجبات الزوجة».

ـ أرجو ذلك!.

تساءلت متكدرة عما يجعلهما يتكلمان مع بعضهما البعض بمثل هذه الحدة؟ ليس هذا ما صممت عليه مطلقاً. لكن حضور كاي بشكل غير متوقع بعث الاضطراب في ذهنها كلياً.

سألها الصبي فجأة: «هل أنت ذاهبة مع ذلك الرجل؟».

ـ عليّ ذلك. إنه زوجي.

ألقى كيفين على كاي نظرة متحدية: «لماذا لا تدع آدي وشأنها؟!».

ـ لأنني زوجها.

ـ ألا يمكنها العودة إلى هنا؟.

فقال كاي بهدوء: «أظنّ أنّ علينا جميعاً أن تنتظر ونرى. أدريان هل أنت ذاهبة الآن إلى غرانج؟».

أجابت وهي تلوّح بيدها للصبي تودعه: «عليّ أن أذهب أولاً إلى مكتب البريد».

ـ سأسير معك إذن.

ثم سار بجانبها. بدا لها متعباً، فتمنت لو تزيل التوتر عنه بعناقها، وتغمض عينيه بأناملها. تمنت لو تضمه إلى صدرها وتدعه ينام.

قال مداعباً: «لديك معجب!».

ابتسمت بحنان: «إنه صبيّ هائل! لقد أمضى طفولة صعبة».

ـ هل كان الصبي أحد أسبابك للموافقة على زواجنا؟.

كان هذا تقريراً لواقع وليس سؤالاً فأحنت رأسها: «نعم!».

وساد الصمت. ثم سألته: «لماذا جئت للبحث عني؟».

ـ من باب حماية ممتلكاتي، يا عزيزتي!.

وكان صوته مرحاً ساخراً، فقالت بحذر: «ما كنت بحاجة إلى الحضور، اليوم. لقد تدبرنا، أنا والسيدة ويتلي، كل شيء».

ـ تعنين أن حضوري لبضع ساعات في العطل الأسبوعية هو أكثر ملاءمة؟ (وعنف صوته) إن غرانج هو بيتي يا آدي وسأزوره متى شئت.

وسكت لحظة: «إذا كان في ذلك مشكلة بالنسبة إليك، فتصرفي!».

عضّت شفتها: «ليس هذا ما عنيته، يا كاي. . دعنا نتجنب المزيد من سوء التفاهم. ستمرّ بنا العطلات الأسبوعية صعبة بما فيه الكفاية ولا حاجة

www.elromansia.com

بنا إلى العراك».

ـ ظننت أن كل شيء قد انتظم.

ـ إنني فقط أتساءل كيف سأتصرف مع ضيوفك...

ـ أنت زوجتي وعليك أن تتصرفي كزوجة.

قالت بسأم: «حسناً فهمت! إنس أنني قلت شيئاً! ها هوذا مكتب البريد».

فقال هازلاً: «آه، هذا هو السبب في أنني رأيته مألوفاً! ثمة مقهى أيضاً! لماذا لا نتناول إبريق شاي بشكل حضاري أثناء بحثنا عن طريقة نقلّل بها ارتباكك؟».

فقالت وهي تضع مغلفاتها في صندوق البريد: «حضاري؟ إنها كلمة لا يمكن استعمالها في وصف علاقتنا».

التوت شفتاه بابتسامة: «لعلك أنت التي أثرت الوحش الكامن في نفسي، يا آدي. لكنني أريد أن تكون العطلة الأسبوعية هذه مريحة، ولن تكون كذلك إذا استمرت نفسك تفيض بالاستياء».

فقالت له: «أريد أن أبدو فتاة عادية متواضعة».

وقفا أمام المقهى، وامتدت يدا كاي تمسكان بكتفيها تديرانها بخفة حتى تمكنت من أن ترى صورتها في زجاج الواجهة. ثم قال بخشونة: «انظري إلى نفسك جيداً، يا أدريان. انظري إلى شعرك، بشرتك، عينيك. لا يمكنك أن تتواري بعيداً في الظل حتى ولو حاولت».

ـ لماذا تقول ذلك؟!.

ـ لأجل هذا.

وجذبها إليها. كان عناقه سريعاً لكن فيه مشاعر كبيرة.. لم يستعمل أية قوة ولكن عندما أطلقها من بين ذراعيه شعرت بالحرمان.

تراجعت خطوة، مقاومة رغبتها في العودة إلى ذراعيه. حدّقت فيه مفتشة عن شيء تقوله، محاولة أن تقرأ مزيداً من المشاعر في ملامحه، ولكنه سارع إلى القول باقتضاب: «والآن دعينا نتناول ذاك الشاي».

كان عليها أن ترفض. أرادت أن ترفض، أن تقدّم عذراً، أن تستقل سيارتها وتذهب إلى مكان ما فلا يعثر عليها بعد ذلك أبداً. ولكن، وبشكل ما، كانا في المقهى. وكان كاي يطلب الشاي مع بعض الشطائر.

قال بعد أن ابتعد النادل: «تقول جين إنك لا تأكلين ما يكفي».

فردت بشيء من الحدّة: «أنا في أحسن حال. إن جين تبالغ في الأمور».

ـ أظنني سأدعك تخبرينها بنفسك.

بدا ودوداً هادئاً؛ وعجبت من ذلك... وتنفست بعمق: «كاي. أريد أن أتحدث إليك بشيء».

ـ هل أنت واثقة من ضرورة ذلك؟.

فابتلعت ريقها: «إنه مهم... بالنسبة إليّ».

ـ هل ستخبرينني أنك حامل.

ـ لست حاملاً بالتأكيد، كما أن من المبكر أن أعرف.

ـ هناك فحوص تساعد، أليس كذلك؟.

أجابت: «نعم صحيح، ولكنني لا أحتاج إلى فحص».

ـ كيف لك أن تكوني متيقنة؟

فكرت ثم أجابت: أعرف ذلك. إنه حدس الأنثى.

جاء الشاي في تلك اللحظة. وعندما مدّت إليه يدها بالكوب، قالت: «لماذا لم تخبرني بأن بيرس هو الذي سجنني في بيت الشجرة وليس أنت؟».

فقال بعد لحظة صمت: «لأن تلك الطريقة كانت أسهل».

ورفع يده إلى أثر الجرح في خده.

ـ لكنهم أبعدوك! لا بد أن الأمر كان مخيفاً بالنسبة إليك، لم يسمحوا لك بالعودة إلى «غرانج» إلا نادراً، حتى أثناء العطل!.

ـ وعندما عدت، زادت المشاكل. هل هذا ما تهدفين إليه؟.

فأجفلت ثم قالت: «إنني أحاول أن أفهم. يمكنني أن أتصور مبلغ غضبك حينذاك، ومرارتك».

ثم أخذت تفكر: عندما نبذه أنغس في المرة الأخيرة، كنت هناك وأردت

www.elromancia.com

أن يضربه بقسوة. كنت مدللة أنغس وأحظى بهداياه الثمينة، فأراد كاي أن يعاقبني على دوري في ذلك كله!.

قال بعدم اكتراث: «لقد نفوني إلى إحدى أفضل المدارس في المنطقة، ومن بعدها إلى الجامعة. لم يكن العقاب حكماً بالأشغال الشاقة!».

فقالت وهي تتذكر ما كانت سمعته أثناء حديث دار بين والديها: «آه، لكنني كنت أظن...».

ـ أعرف ماذا كنت وما زلتِ تظنين بشأن تلك القضية. ما سبب استعادة هذا كله، يا آدي؟.

خفضت أدريان بصرها: «ظننت أن الوقت حان لكي أعتذر عن دوري في هذا كله».

فقال بعدم اكتراث: «اعتبري أن الاعتذار حصل. لقد مضى على ذلك وقت طويل!».

فقالت بصوت خافت: «ولكن صداه ما زال يتردد في حياتنا، نحن الاثنين. أليس هذا هو السبب في أنك اشتريت المنزل «غرانج؟».

ـ نعم. كنت دائماً أريد الحصول عليه!.

فابتلعت ريقها: «وهل... كنت أنا جزءاً من المخطط؟».

فارتسمت على شفتيه ابتسامة ملتوية: «نعم! وهذا يثبت مقدار عدم الحكمة في بعض الطموحات».

وسكت لحظة: «إن لديّ شيئاً أريد أن أخبرك به، يا آدي».

ظنت بأسى أنه سيعترف لها بسرقته العقد، فلم تستطع احتمال ذلك لأن أحداً لا يمكنه أن يجد عذراً للأذى الذي لحق بأنغس وبها أيضاً.. لم تشأ أن تسمعه يعترف بذلك.

نظرت إلى ساعتها وتصنعت الدهشة: «لديّ موعدٌ مع زبونة.. ارتبطت معها بعمل ضروري... سوف. أراك في المنزل في ما بعد».

رأت ملامحه يكسوها الجمود، واكتئاباً مفاجئاً في عينيه. نهض واقفاً وهو يقول بهدوء: «كما تشائين».

منحته ابتسامة سريعة بلا معنى، ثم ركضت خارجة.

قادت سيارتها إلى خارج القرية متعمدة اختيار طريق يؤدي بها إلى منطقة بعيدة عن «غرانج». كانت تريد الابتعاد لكي تستطيع التخلص من الاضطراب الذي تعانيه. وقفت بجانب الطريق ثم استندت في مقعدها إلى الخلف، وأغمضت عينيها تاركة ذاكرتها تعود بها إلى الماضي المؤلم عبر السنين. دهشت وتأثرت عندما أخبرها أنغس ستريتون ذات يوم بأنه سيقيم لها حفلة في «غرانج» بمناسبة عيد ميلادها الثامن عشر، قائلاً بلطف ومحبة: «لطالما تمنيت أن يكون لي ابنة أدللها. ومن كرم والديك أنهما سمحا لي بمشاركتكم هذه المناسبة الخاصة. لقد حان الوقت لينتعش هذا المنزل».

شعرت أدريان آنذاك بأسف شديد لعدم وجود أسرة تحيط بالسيد ستريتون. وتذكرت كلاماً كانت سمعته من والديها فهمت منه أن السيد ستريتون متزوج، لكن زوجته مقعدة وتلازم السرير في مصحة خاصة.

من حسن الحظ أن لديه بيرس، والأحسن أن بيرس كان في إحدى زياراته لخاله عندما أقامت حفلتها في تلك العطلة الأسبوعية. لكنها لم تكن تتوقع حضور كاي أيضاً.

لم تكن رأته منذ سنتين. وقبل ذلك كانت تتجنبه على الدوام، فتبتعد عن «غرانج» أثناء زياراته المتباعدة.

يومذاك عندما ناداها باسمها مبتسماً، وجدت من الصعب أن تبقى على عدائها له. فضلاً عن أن هذا الفتى الذي يناديها، بقامته الفارعة وعينيه الهادئتين، لا يشبه ذلك الغلام الذي تحوّل من صديق إلى عدوّ. إنه الآن يطلب صداقتها مجدداً.

عندما سألها برقة: «آدي، هل ما زلت ذلك الغول الذي يخيف طفولتك؟».

نسيت أنها في الثامنة عشرة، وأنها تعتبر راشدة، فاحمر وجهها حتى جذور شعرها، وأخذت تتنصل متلعثمة.

في اليوم التالي كان قد رحل. لكن أدريان لم تستطع نسيان تلك المواجهة

الخاطفة. فقد استقرت صورته في ذهنها، في اليقظة وأثناء النوم.

وإذ تعود بذاكرتها إلى الوراء، ترى أنه لم يكد يمرّ يوم من دون أن تفكر فيه.. متسائلة أين هو وماذا يفعل ومتى يعود.. ببطء وثبات، كانت ذكراه تنغرس في قلبها وعقلها، وأخذت تزدهر.

وهكذا، عندما ذهبت إلى «غرانج» صباح يوم مولدها، ورأته واقفاً في غرفة الاستقبال، اندفعت نحوه بفرح عارم وقلبها يرقص بين جنبيها وكانت ترى السرور الكبير في عينيه وهذا بعث فيها مشاعر جديدة عليها، ما أبهجها وأخافها في وقت واحد. وعندما رفع رأسه أخيراً، قال برقة: «حسناً، والآن...».

ثم سمعا أنغس قادماً مع أبيها، فتفرقا. توقف أنغس عندما رآها، ونظر إلى كاي بشيء من الحذر، فبادله كاي النظر بشيء من الابتسام.

ثم أخذوا يناقشون الترتيبات النهائية للحفلة، ناسين تلك اللحظة غير العادية.

لما عادت مع أبيها إلى بيتهم، سألته: «أليس رائعاً أن يكون قد عاد؟».

ـ ليس تماماً... فذلك يعني أن طلبات المال التي لا تنتهي ستبدأ من جديد، وأنغس يستحق شيئاً من السلام.

أذهلتها هذه الكلمات. هل هذا هو سبب عودة كاي؟ وتملكها استياء شديد وخيبة أمل. ولكن ما سبب تلك الخيبة؟ هل لأن أنغس رجل ثري وكاي يحاول أن ينشىء لنفسه عملاً؟.

بقي هذا السؤال معلقاً، ورافقها طوال النهار كظلها. لكنه لم يفسد انتظارها الحفلة وتوقعها زيارة زميلاتها في المدرسة.

ارتدت أدريان ثوباً حريرياً بلون التشدة، وساعة ذهبية، هدية من والديها، وقرطين ذهبيين صغيرين.

كانت متلهفة إلى رؤية كاي، ولكنها رأته يحاول تجنبها... كل شخص أراد أن يكون بقربها، ما عدا كاي. حدثت نفسها بأنها، في ما بعد، ستنفرد به وسيكون الأمر مختلفاً.

حدثت نفسها: لقد عاد لأجلي، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك!.

كان بيرس في كل مكان، طبعاً. وفكّرت أدريان بأن هذا ليس بالأمر السيء، وقد همس لها بأنها تبدو رائعة الجمال. لعل هذا الاطراء يحرك شيئاً في نفس كاي!.

كان أنغس قد منحها مجموعة من الاسطوانات الموسيقية الكلاسيكية. لكنه أثناء الحفلة، طلب من الجميع الصمت، ثم قدم إليها علبة مجوهرات مخملية، قائلاً: «إلى من اعتبرها ابنة لي!» ثم شملها بابتسامة محبة.

عندما فتحت أدريان العلبة، وجدت عقداً مرصعاً يتألق أمامها. أحجار عقيق مركبة على ذهب رقيق بيضاوي الشكل. وأدركت بالغريزة أن العقد قديم جداً، ولعله ثمين. شهقت لرؤيته وأخذت تشكر أنغس متلعثمة. أخذ كاي العقد من العلبة ووضعه حول عنق أدريان برقة، بينما أحنت هي رأسها تخفي توهج وجهها لملامسته رقبتها.

قال محذراً: «يبدو أن قفل العقد غير ثابت تماماً! انتبهي يا آدي!».

بعد ذلك، أخذت هذه الكلمات تتردد في ذهنها باستمرار. وإذ تملكها القلق من أن تنفك سلسلة العقد ويضيع، أعادته إلى علبته ووضعتها مع بقية الهدايا في المكتبة.

ولكن عندما انتهت الحفلة، ومضت إلى المكتبة لتحضر أشياءها، لم تستطع مقاومة رغبة في إلقاء نظرة أخرى على العقد. فإذا بها تجد العلبة فارغة! . وقفت تحدق فيها، وقد تملكها الدوار. ترى هل عادت وأخذته من العلبة؟ أتراه سقط على الأرض في مكان ما؟.

ـ ماذا حدث، يا حبيبتي؟

كان هذا بيرس الذي كان دخل إلى المكتبة خلفها، فمدت إليه يدها صامتة تريه العلبة الفارغة، وقد اتسعت عيناها في وجهها الشاحب.

قال بانفعال: «هكذا إذن؟! لدينا لص هنا! يجب أن يعلم خالي بهذا».

وأمسك بذراعها يسير بها عائداً إلى غرفة الجلوس، حيث وقف يعلن، ماداً يده بالعلبة الفارغة: «لقد سُرق عقد أدريان! أرى أن نستدعي

الشرطة!».

أخذت أدريان تفكر في أنها تحلم، وأنها سرعان ما تستيقظ فتجد كل شيء طبيعياً. ساد صمت قصير هائل. رأت الذعر على وجه والديها، كما بدت الصدمة على أنغس، وهو يلتفت إلى كاي. ثم قال بتعب: «الأفضل أن تذهب وتحضر العقد!... أظنه في غرفتك!».

فقال كاي آنذاك بهدوء، وقد ظهر التمرد في عينيه: «يبدو أنك متأكد من ذلك!».

فأومأ أنغس: «ستذهب وتحضره، ثم تغادر هذا البيت إلى غير رجعة، وإلا فلن أستطيع مواجهة العواقب!».

فسأله بيرس غاضباً: «وهل هذا كل شيء؟! يجيء إلينا مستجدياً، لكي يسرق ضيفة تحت هذا السقف، فنكتفي بإخلاء سبيله؟! يجب أن يسلّم للشرطة!».

فقال أنغس بصوت حازم: «لم تصبح بعد سيد هذا البيت، يا بيرس. سأعالج الموضوع كما أشاء. سيعيد كاي العقد إليّ ثم يرحل».

كان جوّ الغرفة حاراً، لكن أدريان شعرت بالبرد والدوار فجأة.. فأمسكت بكم والدها: «هل يمكننا الذهاب الآن؟.. أرجوك... لا أستطيع الاحتمال أكثر».

فأجاب بسرعة: «نعم، طبعاً. آسف يا عزيزتي!».

تقدمت أمها إلى جانبها تحيطها بذراع حانية ثم تقودها إلى خارج الغرفة. وفي بيتها، استلقت على سريرها غير عابئة بإفساد طيات ثوبها الجميل. قالت: «لماذا فعل ذلك؟».

فقال أبوها بهدوء: «لقد رفض أنغس إعطاءه مزيداً من المال فكان هذا انتقامه! أنا آسف لأنه ورّطك في الأمر. فهذه قسوة بالغة منه. (وسكت لحظة) ستستعيدين العقد طبعاً!».

فأخذت تبكي: «لا. لا أريده بعد الآن! لقد فسد... كل شيء فسد!».

كان سيذكرها بكاي على الدوام، وهو يطوّق عنقها به. إنها لا تريد أن تتذكر ذلك... أبداً.

أدركت أن ما فسد ليس الحفلة فقط، وإنما حياتها بأجمعها. ذلك أن كاي، الذي أحبته، كان لصاً وقد خسرته إلى الأبد.

تحركت أدريان وفتحت عينيها، مرغمة نفسها على العودة إلى الواقع. نظرت لحظة إلى الزجاج الأمامي، ظناً منها أن المطر عاد ينهمر، فأدركت أن عينيها هما الغائمتان بالدموع. لقد سحقتها قوة مشاعرها نحوه. إنها تهفو إليه بعقلها وقلبها. كل ما فيها يطلبه كما يطلب الصدر الهواء والتنفس.

هل مرّ عليها وقت لم تكن تحبه فيه؟ سألت نفسها هذا السؤال. كل تلك السنوات أمضتها في مقاومة حبها له، محاولة الاختباء خلف حواجز من المرارة والازدراء.

أوحت إلى نفسها مرة بعد مرة بأنها تكرهه، آملة أن يتحول ذلك إلى كراهية فعلية. لكنّها تعلم الآن أنّ ذلك كله كان بلا جدوى. أخذت تفكر بقنوط أنها أحبته في الماضي، وما زالت تحبه حتى الآن... لكنني لا أستطيع البقاء مع رجل لا أثق به! وهذا كل ما في الأمر! وإلى أن يسمح لي بالرحيل ويطلقني، لا سبيل أمامي إلا الصبر. عندما لم تبق في عينيها دموع، تحركت بالسيارة عائدة إلى «غرانج»، لتواجه ما بقي لها من وقت.

* * *

١٠ ـ عندما يصحو القلب. . .

لما دخلت المنزل، حمدت الله على أنها لم تجد أحداً، فاستطاعت أن تهرع إلى غرفتها لتغسل دموعها وتسوّي من شأنها.

أخذت حماماً طويلاً، شعرت وكأنها تلقي عنها الماضي كجلد قديم. وإذا هي أبقت عينيها على المستقبل بحزم، مهما كان كئيباً، فسوف تستطيع مواجهة الحاضر بشكل أو بآخر. أما أن تقيم مع كاي تحت سقف واحد، من دون أن يقاربها، فليس بالأمر السهل!

نشفت جسمها وارتدت ملابسها الداخلية، ثم «روب» حمامها القديم. تجمعت على مقعد بذراعين، وأدارت مجفف الشعر الكهربائي، ممشطة خصلات شعرها الطويلة بأصابعها. ما كادت تنتهي من ذلك حتى سمعت طرقاً على بابها اختلط بأزيز مجفف الشعر. أوقفت هذا الأخير، ثم سارت إلى الباب وهي تحكم ربط «الروب» حولها. كان كاي ينتظر بصبر نافد.

ـ ألم تسمعيني أطرق الباب؟

ـ كنت أجفف شعري.

رؤيته فقط كانت كافية لتجعلها ترتجف في داخلها: «هذا ما أراه!».

ومد يده يمسك بخصلة من شعرها الحريري: «تبدين وكأنك في السادسة عشرة، يا آدي. هل تعلمين هذا؟».

توهج وجهها وشعرت، إزاء نظراته، أنها عادت فعلاً إلى سن السادسة عشرة. قالت بنبرة واضحة: «هل تريد شيئاً؟ هل هناك مشكلة؟».

ـ جئت لأعطيك هذا.

وقدم إليها علبة عريضة مربوطة بشرائط. فأخذتها أدريان مترددة: «ما هذا؟».

فقال وهو يتبعها إلى داخل الغرفة: «افتحيها».

أزالت الورق وفتحت العلبة، وإذا بقماش متألق يصافح عينيها. ظنته أسود إلى أن وقع عليه الضوء فرأته قرمزي اللون. أخرجته فوجدته ثوباً ذا فتحة عنق واسعة وكمين طويلين وتنورة قصيرة.

ـ أريدك أن ترتدي هذا الثوب في حفلة الكوكتيل، مساء السبت. إنهم يسمونه «أحمر نينيبيا».

ـ إنه. . إنه رائع! ولكن ما كان عليك أن تشتري لي ثوباً.

ـ اعتبريه هدية من زوجك.

ـ وكيف عرفت قياس جسمي؟.

ـ بالغريزة. هل تصدقين ذلك؟!.

ارتجفت شفتاها بابتسامة: «لعلك تملك ما يشبه الحدس عند المرأة. أما اللون. . . فإنني لا أرتدي الأحمر أبداً!».

ـ جربي. . وانظري كيف يكون.

كان لا يزال يرتدي بذلة العمل الداكنة، فجلس وهو يحل ربطة عنقه ويفك أزرار صداره.

ـ أمامك؟!.

ـ أدخلي إلى الحمام وبدليه.

عندما دخلت الى الحمام تناولت الثوب وأدخلته في رأسها. شعرت به بارداً منعشاً على جسمها الحار. ثم أدخلت ذراعيها في الكمين، لتقف بعد ذلك بجفلة أمام صورتها في المرآة. لو عاد الأمر إليها لما جرؤت على شرائه،

www.elromancia.com

لكنها ترى الآن كيف أظهر هذا الثوب لهيب شعرها وبياض بشرتها.

رأت نفسها مختلفة تماماً عما كانت عليه. ثم خرجت من الحمام وتقدمت نحوه حافية، تلفُّ حولها التنورة، وسألته بغنج: «ما رأيك . . . ؟».

رأته ينهض عن كرسيه. . وانتظرت متوترة. . .

تنهد، وتقدم منها يدفن وجهه في شعرها: «سيكون هذا سهلاً، يا أدريان، وكذلك مستحيلاً، لأنني بحاجة إلى أكثر مما تعطينني، ولن يرضيني أقل من ذلك».

وتركها بحزم، إنما برفق، ثم سار نحو الباب. أمسكت بثوبها ونظرت إليه خارجاً، غير مصدقة. عند العتبة التفت إليها وقال: «كما أخبرتك من قبل. لديّ ضيفة أخرى ستصل في عطلة الأسبوع».

سكت لحظة ثم تابع يقول: «طلبت من جين أن تضعها في الغرفة المجاورة لغرفتي».

شعرت بسكين حادة تطعنها فسارعت تقول: «لا يمكن أن أنام في غرفة أخرى، فماذا سيقول ضيوفك . . ».

قاطعها قائلاً: «لا يهمني ما سيظنونه فلا تفكري في تغيير الوضع» قال جملته تلك ثم خرج مسرعاً.

مضى وقت طويل قبل أن تتحرك. قبل أن تتمكن من التيام بحركة بسيطة كخلع الثوب وتعليقه. قبل أن تستطيع جعل ذراعيها وساقيها تطيعانها، وإرغام ذهنها الذي تملكه الدوار على تفهّم ما حدث للتوّ.

في المرآة، كان ثمة فتاة تبادلها النظرات، فتاة يبدو على وجهها الإنهاك في ظلال الغرفة. فتاة تبدو عاجزة مهجورة بشكل مخيف!

أخذت تحدق في تلك الفتاة، محاولة أن تراها بشكل محايد. أن تراها كما رآها كاي منذ دقائق قليلة. . . الخصر النحيل. . . الساقان الرشيقتان. وقدّ رائع.

ولكن، هل هي حقاً مرغوبة؟ لم تعد واثقة من أي شيء، وخصوصاً من

سذاجتها. بحركة انفعالية سريعة تناولت «الروب» فارتدته وأدارت ظهرها للمرآة، كأنها بذلك تمحو تلك الصورة من ذهنها.

لقد عرّضت نفسها لفحص مشاعر دقيق. وفي اللحظة التي وجدت في نفسها الشجاعة لتخبر كاي بأنها كانت مخطئة نحوه، كان هو يحاول أن يخبرها بأن هذا الأمر لم يعد مهماً، وأنه وجد امرأة أخرى يشاركها المستقبل بدلاً من الماضي. امرأة تراه على ما هو الآن، بدلاً من ذلك الشخص المنتقم المليء بالمرارة الذي خلقته تصوراتها.

لقد كان يرغب فيها. وكانت في بعض اللحظات واثقة تماماً من ذلك، لأنه كان يستجيب كأي رجل آخر. وهذه الليلة ظهرت، للحظة قصيرة، واحدة من تلك اللحظات. لكنه، في النهاية، تركها وخرج، لأنه أعاد تكوين حياته بشكل لم يعد لها مكان فيها. لأن الإخلاص للمرأة الجديدة التي وجدها هو الآن أكثر أهمية من الاستجابة لنزوة عابرة.

لعل طريقتها الفاشلة في محاولة الاستسلام إليه هي التي حددت خياره النهائي. أخذت تفكر في ذلك وقد انقبضت يداها بألم لا إرادي. لقد أقنعه سلوكها بأن الاتفاقية التي أرغمها عليها لم تكن كما رغب على الإطلاق، وإنما مجرد تسلية لا جدوى منها ولا عاطفة.

وربما جعله هذا يرى كم تعني فتاته الجديدة بالنسبة إليه. ولذلك رجع إلى لندن بمثل تلك السرعة. . لكي يتخلص نهائياً من الماضي وأسئلته.

إنها تدرك الآن بوضوح، ولو بعد فوات الأوان، أن ما فعله كاي في الماضي، أو ما أصبح عليه الآن، وكذلك الاستمرار في الشكوك. . . كل ذلك لم يعد ذا أهمية تذكر. لقد أصبحت متعلقة به إلى الأبد، وهي تشتاق إليه مع كل نفس من أنفاسها.

لا زمن ولا مسافة يمكن أن تؤثر على ذلك. حتى ولا المنطق الهادىء في أنه اختار امرأة أخرى، وأنها أصبحت امرأة محكوم عليها بوحدة موحشة قفراء.

www.elromancia.com

أفلت منها أنين، فرفعت يدها إلى فمها تخنقه. فقد ظلت توهم نفسها مرة بعد مرة بأن الأمر مجرد زواج مصلحة، وأن لا عواطف لديها نحوه، وأن بإمكانها الرحيل عندما تنتهي مدة هذا الزواج المهزلة... وها هوذا كاي الآن يتقبلها كما أرادت! . لقد أُلغي العقد بينهما، وانحلّ الرباط وهي لا تعلم الآن سوى أنها تنزف حتى الموت! .

وقت الأسف على خسارتها هذه، سيأتي لاحقاً. أما الآن، فهي بحاجة إلى شيء من العزيمة لتتجاوزهذه العطلة بسلام. عليها أن تبتسم مرحِّبة بضيوف كاي.. أن تحصل، بلطفها وكفاءتها، على المال الذي ينقذها من الكارثة.. وأن تعامل تلك السيدة القادمة بلامبالاة.

ثم تملكتها الكآبة وهي تفكر في أنه يسخر منها. فعليه أن يحترمها ولو قليلاً فكيف يسمح لنفسه بإحضار امرأة وزوجته موجودة.. صحيح أن زواجهما مهزلة ولكن ذلك لا يلغي الواقع.. وماذا سيكون رأي الضيوف؟ إنها ترفض أن تنظر إليها العيون بشيء من الشفقة.

لفّت الروب حولها، ثم خرجت من غرفتها. في نهاية الممر، أمكنها أن ترى باب غرفة الضيفة الملحقة بغرفة كاي، مفتوحاً. وعندما وقفت، مترددة، خرجت السيدة ويتلي من غرفة المفارش تحمل مناشف.

تصنعت أدريان الابتسام، قائلة بمرح: «سمعت أنكم ستستقبلون ضيفة جديدة».

ـ لقد أخبرك السيد هادن عنها إذن يا سيدتي.

وبدا الارتياح على المرأة: «رأيت أنه تأخر في دعوتها، وكان هو يحاذر من إزعاجنا».

ـ سننجح في مواجهة الأمر، أنا واثقة من ذلك. بمكنتي المساعدة بشيء؟.

قالت أدريان ذلك بهدوء وهي تتبع المرأة. فابتسمت هذه لها: «لا، شكراً يا سيدتي! لقد أصبحت معتادة على خدمتها وأعرف كيف تحب أن تكون أشياؤها».

ـ فهمت! .

هذا كل ما استطاعت أدريان قوله. إذن فتلك علاقة قديمة راسخة؟ وربما حدث بينهما خلاف بسيط جعل أفكار كاي تتحوّل مؤقتاً نحو نوع مختلف من اللهو ثم ما لبث أن أدرك خطأه ورجع إليها...

أصبحت كلّ الترتيبات مكتملة الآن. هكذا لاحظت أدريان وهي تقف عند العتبة. لم تكن غرفة الضيفة الجديدة أكثر الغرف اتساعاً، لكنها المفضلة لديها، بستائرها وأغطيتها المطبّعة بالأزهار.

تنحنحت، ثم قالت: «أشعر بصداع، يا سيدة ويتلي! هل بإمكاني تناول عشائي في غرفتي؟».

فقالت المرأة بتفهم وعطف: «طبعاً، يا سيدتي! هل تفضلين عشاءً خفيفاً؟. هل أحضر لك بعض الحبوب المسكنة؟».

ـ لديّ بعض منها: (وأيّ مسكّن بإمكانه أن يريحها من الألم الذي كان يغلي داخلها؟!) لا بأس بطعام بسيط، إذا لم يكن ثمة إزعاج.

وترددت قليلاً: «أخبري فقط السيد هادن بأنني لن أنزل إلى العشاء..».

ـ آه.. هو أيضاً يتعشى خارج البيت، يا سيدتي! لقد أخبرني لتوه. ليس ثمة مشكلة...

ما أشد حرصنا، نحن الاثنين، على تجنّب بعضنا البعض! أخذت أدريان تفكر بذلك وهي تعود إلى غرفتها. ولكن قد يكون هذا هو الأفضل بالنتيجة وتمنت من كل قلبها لو تستطيع تصديق ذلك.

* * *

أمضت المساء في غرفتها. أحضرت لها السيدة ويتلي عشاءً هو عبارة عن حساء الفطر وعجة بالأعشاب، ومن ثم حلوى بالشوكولا. وإذ رأت وجهها الشاحب، نصحتها بالنوم باكراً. ثم وقفت بقربها عندما

ابتلعت أدريان الحبوب لإزالة الصداع المصطنع الذي أصبح الآن حقيقة واقعة.

بدا مستحيلاً أن تتمكن من النوم. ومع ذلك فقد نامت. وعندما استيقظت، كانت أشعة الشمس تتسرب من خلال الستائر. للحظة، بدا لها أن النهار سيكون رائعاً... إلى أن تذكرت... لكنها عادت فحدثت نفسها بأن الصباح هو فقط ما عليها أن تتحمله، لأن الضيوف سيبدأون بالتوافد بعد الظهر، ولن يكون لديها مجال «للتفكير».

عندما نزلت لتناول الفطور، لاحظت أنها آخر من غادر غرفة نومه. وعلمت من الصحن والكوب المستعملين أن كاي سبق وتناول فطوره.

شربت شيئاً من القهوة الطازجة التي أحضرتها إليها السيدة ويتلي، ثم قطعت شريحة خبز من غير أن تأكلها. أخلت المائدة ووضعت الأطباق الفارغة على صينية لتأخذها إلى المطبخ. فعلت ذلك بنفسها لأن ثمة عملاً كثيراً أمام الخدم الذين وصلوا منذ قليل.

رغم كل شيء، وجدت أدريان أنها لم تر المنزل قط بهذا الجمال من قبل. فهي التي خططت لإصلاحه، وثابرت على مواكبة انتعاشه التدريجي... وتنهدت؛ لقد أولت هذا العمل كل عنايتها وأودعته كل حبها!.

ـ فاكس باسمك!.

إنه كاي الواقف بباب مكتبه ماداً يده لها بورقة. بدا ثقيل الأجفان بحاجة إلى حلاقة، ووديعاً مستكيناً، فهفا قلبها إليه شوقاً.

قالت ببرودة: «شكراً!».

وكانت الرسالة مختصرة: «تعالي نحو الحادية عشرة. لديّ مفاجأة لك... زيلدا».

قال ببرودة مماثلة: «كان عليك أن تخبريها بأنني أحتكر وقتك أثناء هذه العطلة الأسبوعية».

فرفعت رأسها: «كل شيء جاهز. وأعتقد أنه يحق لي بنصف ساعة من الراحة قبل أن أستقبل ضيوفك بشكل حسن».

وترددت: «عما قريب سنفترق وعندئذٍ ستتولى امرأة أخرى واجب الضيافة».

فتوترت شفتاه: «ماذا يعني ذلك بحق الله؟!».

فقالت بهدوء: «إنها.. صديقتك الأخرى. أليس المفروض أن تتصرف في المستقبل بصفتها المضيفة؟».

فهز رأسه: «إنها تكره القيام بذلك. فهي تميل إلى الخجل».

فرفعت حاجبيها: «هذا يعني أن الضيافة لديك مستقبلاً ستكون نادرة».

فقال بصوت خشن وملامح متجهمة: «دعي هذا الأمر لي، وحاولي أن ترجعي في وقت مناسب!».

عضت شفتيها: «نعم، نعم طبعاً!».

ذهبت إلى المطبخ لتضع الصينية في مغسلة الأطباق. كانت السيدة ويتلي هناك، فقالت أدريان: «مزاج السيد هادن ليس حسناً هذا اليوم!».

لوت مديرة المنزل شفتيها وقالت بإيجاز: «أثر السهر!».

ـ آه...

وقبل الحادية عشرة بقليل، استقلت سيارتها الجيب إلى القرية حيث كانت زيلدا في انتظارها مع القهوة.

ـ والآن، ما هي المفاجأة؟.

ـ قررت أن ثوبك الأسود القصير بحاجة إلى شيء ما.

وناولتها لفافة. فتحتها أدريان فوجدت صداراً مطرزاً بالأسود والفضي.

ـ متى صنعت هذا؟. (ولبسته فوق قميصها العاجي اللون) إنه رائع!.

ـ صنعته الليلة الماضية. إنها قطعة متبقية من قماش غرفة الجلوس الصغيرة التي صنعناها لأجل «اللايدي جيلمور». (وابتسمت زيلدا وهي تسألها) هل عجائز المنطقة قادمون للعشاء؟.

www.elromancia.com

- كلا! فقط إلى حفلة الكوكتيل غداً.

وسكتت أدريان لحظة: «وربما لن أحضر تلك الحفلة».

فحدّقت إليها زيلدا: «ولم لا؟ أظنك اتفقت معه على قضاء مدة معينة!».

- الأمور تتغير باستمرار.

وتناولت الصدار تطويه بعناية، ثم قالت بصوت خافت: «زيلدا، لا أظنني أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك!».

فتأوهت زيلدا: «آه، عزيزتي! هذا ما كنت أخافه! لقد وقعت في الغرام!».

فقالت أدريان ببساطة: «لقد أحببته طوال حياتي».

فقالت زيلدا بلطف: «آدي.. منذ أسابيع قليلة كنت على وشك الزواج من بيرس مندوزا!».

أحنت أدريان رأسها متعبة: «كنتُ أخدع نفسي. وما كنت لأستمر في ذلك الزواج. كان غرامي بالمنزل أكثر منه ببيرس. لكنه كان موجوداً.. وكان صلتي الوحيدة بالماضي، وبدا لي أنه يريدني. هذا إلى أنني أقنعت نفسي بأن كاي لن يعود أبداً، وأنني أكرهه... كنت... بحاجة إلى أن أكرهه بسبب كل ما حدث في الماضي وهكذا بنيت كل هذا الوهم عن غرامي ببيرس».

فرفعت زيلدا نظرها إلى السماء: «يا إلهي! ثم عاد كاي..».

فابتسمت أدريان بأسى: «نعم. والآن خسرته... إن... إن لديه امرأة أخرى».

فتجهم وجه زيلدا: «ها قد أصبح الأمر مستعصياً! ومن هي؟».

- لا أدري. لكنه دعاها في عطلة الأسبوع هذه، ثم وضعها في الغرفة المجاورة لغرفته. ولا أظنني أستطيع احتمال ذلك.

وأنهت كلامها بتعاسة. صمتت زيلدا لحظة، ثم قالت بجفاء: «هل أنت واثقة من أن غرامك ليس دائماً منصباً على المنزل؟».

فشهقت أدريان بصوت مرتجف: «طبعاً لا! الذي أحببته دائماً هو كاي!.. أنا فقط مشوّشة...».

وحاولت أن تبتسم: «كان أسهل عليّ الاستمرار في كراهيته».

احتضنتها زيلدا: «آه، يا حبيبتي! حسناً، أظن لديك خياران. يمكننا أن نبيع كل شيء هنا ثم ننتقل إلى مكان بعيد بحيث لا ترينه أو تسمعين أخباره مرة أخرى. يقال: بعيد عن العين، بعيد عن القلب».

فقالت أدريان بفتور: «نعم.. وما هو الخيار الآخر؟».

فهزت زيلدا كتفيها: «إذا كنت تريدينه حقاً، فكافحي لأجله».

- لا أظن لديّ السلاح الملائم.

فقالت زيلدا مشجعة: «آه، هيا! إنه رجل، وأنت امرأة، وهذا يكفي عادة لتحقيق النجاح».

وشملتها بنظرة تقييم: «على كل حال، هذا هو الموضوع منذ البداية. فأنا لم أقتنع بأنك كنت تعسة لأنك ستتزوجين به. كنت متألقة كشجرة عيد الميلاد منذ اليوم الأول؛ وهذا لم يحدث لك مع بيرس على الإطلاق».

فاحمر وجه أدريان: «لم أكن أعلم أنني كنت بتلك الشفافية».

فابتسمت زيلدا: «لم تعترفي قط بمشاعرك الحقيقية من قبل، حتى ولا لنفسك. وهذه هي مشكلتك. والآن، هيا إلى المعركة... وانتصري!».

لما عادت أدريان إلى كوخها لتحضر بريدها، كان جرس التليفون يرن. رفعت السماعة ذاكرة اسمها، فلم يرد أحد، ثم وضع المتصل السماعة.

عبست للتليفون وهي تتمتم: «إذا كان الرقم خطأ، كان عليك الاعتذار على الأقل!».

أخذت تتصفح رسائلها، ملقية ببعضها في سلة المهملات، ثم وضعت الرسائل الشخصية جانباً. كانت تحاول فك رموز بطاقة بريدية من زميلة قديمة أيام الدراسة، عندما طرق الباب. أدارت مقبضه وهي تنظر مقطبة إلى

البطاقة البريدية في يدها.

ـ مرحباً، يا حلوتي!.

وابتسم لها بيرس مندوزا: «هل أدهشتك رؤيتي؟».

* * *

١١ ـ الضيفة الجديدة

جمدت أدريان في مكانها: «ما الذي تفعله هنا؟!».

ـ كنت ماراً صدفة في هذه المنطقة.

ـ هل أنت من اتصل منذ لحظات؟.

ـ أردت التأكد من وجودك، فأنا لا أستطيع الذهاب إلى «غرانج» بعد أن علمت بإقامتك هناك، حالياً.

وعمق صوته وكأنه يتوسل: «كان عليّ أن أراك، يا أدريان! كان عليّ أن أوضح لك الأمر، أن أصلح الأمور بيننا!».

استمرت تحدق فيه غير مصدقة: «لكنك في البرازيل!».

فتوترت شفتاه: «لا تذكّريني! عليّ إنجاز عمل في لندن وهكذا عدت منذ يومين».

ـ ما كان عليك أن تغادر بالشكل الذي... وداعاً يا بيرس!.

وحاولت أن تغلق الباب، لكنه انسل داخلاً، وأغلقه بنفسه ثم استند إليه وهو يقول متوسلاً: «يمكنك على الأقل، أن تسمعي ما أقول».

فقالت ببرودة: «ليس هناك ما ينبغي سماعه. لقد غدرت بي، يا بيرس، فأوشكت على الإفلاس!».

فقال بصوت أجش: «كنت في ورطة، يا أدريان! إنكم لا تعرفون مثل

www.elromancia.com

هذه الأمور هنا في هذه المناطق، لكننا هناك في غابة. . . وكاي هادن هو واحد من النمور! لم يكن أمامي خيار. . المرء يفعل كل ما بوسعه لانقاذ نفسه في لحظة الخطر».

وهز كتفيه: «ولا بد أنك اكتشفت ذلك بنفسك. أنا واثق من أن كاي جعلك تدفعين ثمناً غالياً لإنقاذك».

عضت شفتها: «لا أدري عمَّ تتحدث!».

فضحك: «لا تكذبي، يا حبيبتي! يمكنني أن أرى من عينيك أنك لم تعودي تلك الفتاة البريئة التي تركتها. كل ما أرجوه أن يكون قد وفّر لك ما يروي قلبك».

ـ إنك تثير الاشمئزاز! وأريدك أن تغادر بيتي!.

فرفع يديه باستسلام: «آسف يا حبيبتي. إنني غيور فقط. وأظنني كنت كذلك دائماً».

فهزت رأسها بارتباك: «ولكن لماذا؟».

فقال بخشونة مفاجئة: «لأن خالي كان يفضله عليَّ. جرو خادمة المنزل أهم لديه من ابن أخته! هل تصدّقين ذلك؟ كان مقيماً في المنزل طوال الوقت، بينما كنت أحضر في زيارات متباعدة. وهكذا سنحت له الفرصة للتفريق بيني وبين أنغس العجوز. . ليسرق إرثي!».

فقالت أدريان بلهجة خطيرة: «إذن كان عليه أن يتلقى درساً؟ أليس كذلك؟».

ـ وهل تلومينني؟ أردت إفساد حساباته وتفويت الفرصة عليه. لم يخطر ببالي قط أن بطل أحلامك الذي كان يراقب العصافير سيصبح من ملوك المال، ولو بعد ألف عام!.

ـ ويأخذ منك ميراثك!.

ـ نعم! ولكنني جعلته يدفع ثمن ذلك. لقد أضفت مبلغاً كبيراً لقاء تنازلي عنك!. (وضاقت عيناه) دائماً كنت أنت نقطة الضعف فيه! وهذا جعل. . . المفاوضات أسهل.

قالت: «ليس لدى كاي نقاط ضعف، خصوصاً بعد الآن. وهكذا لا تتوقع منه شيئاً».

ونظر إليها متفحصاً: «ماذا حدث إذن يا أدريان؟ هل هربت أخيراً من حب البطل؟ أم أنك فشلت في. . . أن تكوني الزوجة التي طالما حلم بها».

وضحك: «حسناً، ليس الأمر مستغرباً. إنك فتاة جميلة، يا أدريان، لكنك لست غير عادية. وبإمكان كاي أن يدفع ثمن أي امرأة يريد. . . ».

سارت إلى الباب تفتحه وقد التهبت عيناها: «اخرج. . . الآن!».

فقال بهدوء: «يبدو أنني لمست وتراً حساساً. حسناً، لسنا جميعاً بثراء السيد هادن العظيم. وأنا مصمم على زيارة لندن بصورة منتظمة من الآن فصاعداً. لماذا لا تهربين من هادن وتستأجرين شقة؟ لأعبر لك عن حبي!».

فقالت باحتقار: «إنك تثير الغثيان في نفسي! وأنا لا أصدق أنني جعلتك يوماً ما، تقترب مني. لا تتصل بي مرة أخرى!».

فقال هازاً كتفيه: «كلام خشن! فلنجرب قرارك النهائي».

ابتعد عنها مبتسماً، لكن نظرته كانت مقيتة: «لا تقلقي يا أدريان. فأنت لن تسمعي خبراً مني بعد الآن. ومن ذا الذي يريد كتلة باردة مثلك على كل حال؟!».

سار إلى سيارته المرسيدس المتوقفة عند المنعطف. رماها بقبلة وقحة، ثم انطلق بالسيارة التي أخذت عجلاتها تصدر ضجيجاً عالياً. راحت ترتجف، ولما استدارت لتعود إلى الكوخ، إذا بها ترى كاي واقفاً على بعد أمتار قليلة، متحجر القسمات.

عندما التقت عيناهما، شعرت أدريان أن قلبها قد توقف. بدت جامدة في مكانها وهي تراه يقترب منها.

قال بهدوء غير عادي: «إذن، فهذه هي المفاجأة التي حدثتك عنها صديقتك؟!».

www.elromancia.com

فهزت رأسها بعنف: «لا، لا! ذاك كان شيئاً مختلفاً تماماً. لم يكن لديها فكرة عن عودة بيرس أكثر مما لديّ أنا».

ـ يبدو من لهجتك أنه لم يكن زائراً مرغوباً فيه. من سوء حظك أنني لم أر نفوراً من قبلك وأنت تكلمينه.

ـ لا! أنت متوهم، مثلما توهمت أنا بأنني رأيتك عند بيت الشجرة!.

ـ لم أركِ نافرة من وجوده!.

رأت الإدانة في صوته والازدراء، فاشتعلت غضباً، وقالت ببطء: «كيف تجرؤ على إدانتي؟ وما علاقتك بالأمر؟ إنني «زوجة مؤقتة لك»، يا كاي هادن.. أليس هذا اتفاقنا؟ وليس لك حق التدخل!».

فقال بتشدد وصرامة: «أخبريني أن ذلك لن يحدث، يا أدريان، وأنك لا تفكرين في إقامة علاقة من أي نوع مع تلك الحثالة!».

قالت ساخرة: «مع أنه يذكرك بالخير!.. (اسمع) حياتي هي ملكي، يا كاي، وأنا من يأخذ القرار. ولست بحاجة إلى موافقتك!».

بحركة غريزية أمسك ذراعها بقوة: «هل سترينه مرة أخرى؟».

ـ لقد طلب مني ذلك!.

لم تصدّق ما قالت، لكن عفريتاً دفعها إلى ذلك. الألم الذي كان يحرق قلبها اندفع نحوه فجأة بعنف:

ـ أراد مني أن أجتمع به في لندن.

هز رأسه وقد بدا على وجهه إنهاك مفاجيء.

ـ وأنت تدرسين الأمر؟ يا إلهي! إنك حمقاء يا أدريان!.

فردت عليه بطيش: «وأنت منافق. لا تنسَ أنك من وضعني في سوق البيع والشراء أولاً، فلا يمكنك أن تتذمر من وجود شار آخر!».

شحب وجهه: «لن أنسى هذا! سيبقى يؤرقني مدى الحياة. ولكن لا يمكنك أن تفعلي ذلك يا أدريان، إنك لا تعرفين حقيقته».

ـ وهل أنت أفضل منه كثيراً؟ (وهزت رأسها بازدراء) كلا، يا كاي! إن لديك حياتك ولديّ حياتي. سأحدد خياراتي ولن يمكنك منعي.

فقال بلهجة حاسمة: «ما دمت زوجتي، فلن تستطيعي اللحاق به إلى لندن. إن سيارتي في الانتظار وستعودين معي!».

ـ لديّ «الجيب»....

ـ يمكن أن تبقى سيارتك هنا. سأبقيك مقيدة إلى معصمي طوال هذه العطلة الأسبوعية، يا أدريان. فإذا انتهت، ستكونين حرة في تدمير مستقبلك بالطريقة المناسبة لك. ولكن إلى ذلك الحين، ستبقين مرتبطة بي.

فرفعت رأسها متمردة: «آه، وكيف ستبلغ ذلك لضيفتك؟».

ـ إنها ستتفهم الأمر. فهي تثق بي وليست مثلك، يا أدريان!.

فضحكت ساخرة: «وتدعوني بالحمقاء؟».

ـ بيرس رجل متزوج وأنا زوجك.

ـ الذي سيطلقني في أقرب فرصة ليتزوج امرأة أخرى.

ـ ولكنني لست مثل بيرس. فأنا لا أخون زوجتي مهما كان السبب. والآن، فلنعد إلى بيتنا.

ـ أنا هنا في بيتي!.

فابتسم آسفاً: «طبعاً! أعتذر عن استعمال الكلمة الخطأ. هل ثمة شيء تحتاجينه قبل أن نعود إلى بيتي».

ـ حقيبتي وبعض الرسائل.

وذهبت فأحضرتها عن منضدة الردهة، ثم استدارت لتجده واقفاً خلفها. فقالت من بين أسنانها: «لقد خسر العالم شرطياً عظيماً عندما قررت أن تكون من كبار الملاكين».

فقال برصانة: «انعدام الثقة يعمل من الناحيتين، يا عزيزتي. والآن، هل ثمة إمكانية لإعلان هدنة بيننا؟ على الأقل إلى حين رحيل ضيوفي. الشجار المستمر بيننا سيسبب الضجر البالغ للمتفرجين».

ـ حسناً، لقد أعلنت الهدنة، ما دام بإمكاني الرحيل عندما يرحل الضيوف.

www.elromancia.com

قال مستسلماً: «موافق. لن أحاول منعك مرة أخرى».

افترضت أن هذا نصر صغير لها. ولكنها عندما تبعت كاي إلى السيارة، شعرت بأنه لم يكن إلا هزيمة ساحقة لها.

* * *

مهما كانت مشاعرها الشخصية، كان على أدريان الاعتراف ـ وهي تعود إلى البيت من النادي يوم السبت ـ بأن العطلة الأسبوعية تسير بشكل حسن. دهشت وهي ترى أنها أحبت حقاً الأزواج الثلاثة الذين دعاهم كاي، رغم أنهم جميعاً في سن والديها، باستثناء السيدة «بيرون» التي كانت في الثلاثينات من عمرها. كبراهن كانت «أرلينا ترافيس»، وهي أميركية ممتلئة الجسم، شمطاء، أنيقة للغاية.

أما «باربرا جايمس» فتقيم في لندن. لكنها اعترفت لأدريان بأن طموحها الدائم هو أن تقنع زوجها بالعودة إلى «سافولك» حيث مسقط رأسها ونشأتها. لأنها تشتاق جداً إلى الريف.

كانت لغة «ناتالي بيرون» الانكليزية لا تضاهي لغة زوجها. وفي الليلة الأولى، لم تتحدث على المائدة إلا قليلاً. عندما انتقلوا جميعاً إلى غرفة الاستقبال لتناول القهوة، جهدت أدريان في تذكر فرنسيتها التي درستها في معهد للغات، وأخذت تتحدث إلى تلك الفرنسية الأنيقة ببطء وحذر. تخلل الحديث ضحك كثير، لا سيما أثناء تصحيح بعض أخطاء اللغة والنحو. وسُرّت كذلك لانضمام السيدتين الأخريين إليهما. تساءلت أدريان عن الفكرة التي كونتها هذه الزوجات عنها، رغم أن كاي كان قدمها إليهن رسمياً بصفتها زوجته. وقد ساورها الشك البالغ في قدرتها على تقمص دورها هذا.

حتى ثوبها الأسود، الصالح لكل المناسبات، اكتسب مظهراً عصرياً بالصدار المطرز الذي صنعته زيلدا. فقبل ذهابهما إلى العشاء، أبدت السيدة ترافيس إعجابها: «يا له من ثوب جميل! من أين اشتريته؟».

فقالت أدريان، مدركة أن كاي يستمع إلى الحديث: «إنها شريكتي في

العمل صنعته لأجلي. جعلته مفاجأة لي».

مفاجأة أخرى تلقتها أدريان بترحيب أقل، وهي مظهر كاي الرائع ببذلة السهرة السوداء. كانت المرة الأولى التي تراه بهذه الملابس الرسمية، فأذهلها وخفق له قلبها.

كانت مسرورة للغاية عندما قاربت السهرة على نهايتها. ولم يشأ أحد أن يتأخر في السهر، إذ كانوا جميعاً متعبين من الرحلة، بمن فيهم أدريان. وبينما هي تحل شعرها وتسدله، سمعت طرقاً على بابها.

فتحت الباب فوجدت كاي أمامها، وقد فتح أزرار قميصه العليا وتدلت من يده ربطة عنقه السوداء.

قال برصانة وجدّية: «أريد أن أشكرك على الجهد البالغ الذي بذلته مع ناتالي بيرون. لقد تأثر زوجها هنري جداً. فقد كان يقلقه أنها أحياناً تشعر بالعزلة في مثل هذه المناسبات. أنا شاكر لك جداً».

ـ وأنا أيضاً سررت بها كثيراً. إنها ظريفة حقاً!.

ـ تصرفك كان جيداً، وجمالك رائعاً!.

ولامس وجهها بأنامله: أعجبتني هذه «المفاجأة». تصبحين على خير!.

حركت شفتيها برد التحية، أما الباقي فقد كان همساً دون صوت. لقد أظهر لها، طوال المساء، مثل هذه الصداقة المهذبة. غير أنه سلوك أفزعها في الوقت عينه، لأنه أراها كآبة مستقبل لن تعرف فيه أبداً مشاعر المرأة الحقيقية. ذلك أن كاي، وكاي وحده، هو من يستطيع إيقاظ مشاعرها.

أرادت أن تركض خلفه. أرادت أن تتضرع إليه ألا يفارقها أبداً. لكنها لم تجرؤ على عمل كهذا. إن رفضاً آخر منه كفيل بتدميرها!. تذكرت وهي تغلق الباب ببطء وصية زيلدا لها بأن تكافح للاحتفاظ به بدلاً من ذلك. وبسبب بيرس، ها هي في شجار مستمر معه.

هذا اليوم لم تكد تراه، لأن كل الرجال ذهبوا للعب الغولف. وفي نادي الريف، لعبت هي التنس مع ناتالي وامرأتين أخريين من النادي؛ ثم سبحن جميعاً في البركة وزرن غرف التجميل والتدليك.

في طريق العودة إلى «غرانج»، قالت أرلينا ترافيس بسعادة إنها تتطلع بشوق إلى العشاء، فلا شيء يماثل قضاء يوم ممتع في إثارة الشهية.

وافقتها أدريان على ذلك، رغم أنها شعرت بتوتّر في معدتها حين وقع نظرها على سيارة غريبة... بيجو حمراء... واقفة أمام المنزل. لقد وصلت الضيفة أخيراً!.. وبلعت ريقها. حدثت نفسها بأن التحفظ الجديد الناشىء بينها وبين كاي قد يساعدها على اجتياز الساعات الصعبة التالية.

ـ إنها في غرفتها، سيدة هادن.

قالت مديرة المنزل جواباً عن سؤال أدريان عن مكان القادمة الجديدة: «لقد عادت من رحلة متعبة وهي ترتاح الآن».

ليست خجولة فقط، بل هشة وضعيفة أيضاً! أخذت أدريان تفكر في ذلك ساخرة وهي تصعد إلى غرفتها لتغير ملابسها استعداداً لحفلة الكوكتيل. هل هذا هو ذوق كاي في النساء حقاً؟!.

استحمت وجففت شعرها ثم عادت تكوّمه فوق رأسها. زينت وجهها أكثر مما تفعل عادة، فوضعت لوناً بنفسجياً على جفنيها، ومسحة وردية على وجنتيها. كانت تريد قناعاً تختفي وراءه الليلة.

ترددت أمام خزانة ثيابها طويلاً. ثم اختارت تنورة سوداء ضيقة وبلوزة بيضاء حريرية. كانت أنهت تزرير البلوزة لتوّها عندما تعالت دقات قوية ملحاحة على الباب، وصوت كاي ينادي: «أدريان، ألم تستعدي بعد؟ سرعان ما يصل الضيوف!».

فأجابت وهي تلبس حذاءها عالي الكعب: «تقريباً! سأنزل بعد دقائق».

توقّعت منه أن يكتفي بذلك وينصرف. ولكنها عندما فتحت الباب وجدته ما زال واقفاً هناك. نظر إليها مقطب الوجه، ثم قال فجأة: «لقد طلبت منك ارتداء الثوب الذي أحضرته لك!».

فقالت بصوت مختنق: «فضلت أن.. لا أرتديه».

رقّ صوته قليلاً: «أدريان، إنه آخر مساء لك هنا، فتساهلي معي..».

www.elromancia.com

تحيّرت نظراتها قليلاً، ثم قالت: «كما تشاء!».

وفيما هي تعود إلى غرفتها لاستبدال الثوب قال: «سأنتظر هنا.. ربما احتجت إلى مساعدة... بخصوص السحّاب!».

هزت رأسها وهي تغلق الباب: «يمكنني التصرف...».

ارتدت الثوب الحريري الذي التصق باستدارات جسمها كأنه أحبها. واجهت صعوبة كبيرة في إغلاق السحاب، لكنها ثابرت على ذلك بعناد وهي تدرك، بتعاسة، أنها لن تجرؤ على المجازفة ولو بأقل احتكاك مع كاي.

تمايلت ببطء أمام المرآة، ناظرة إلى اتساع التنورة التدريجي وتلاعب التماعات اللون القرمزي الداكن الذي كان يتغير لدى كل حركة. كان الثوب رائعاً، ولعله أكثر الثياب التي ارتدتها أنوثة. على الأقل، سأودع الجميع بفخامة! تنهدت وهي تحدث نفسها بذلك، هابطة السلم.

ترددت قليلاً عند عتبة غرفة الاستقبال، فالتفت إليها الجميع بتمتمات الاستحسان العفوية ما جعل الدم يتصاعد إلى وجنتيها. كاي وحده ظل صامتاً ينظر إليها متفحصاً بوجه خالٍ من التعبير.

ـ عزيزتي، تبدين أشبه بمليون دولار!

قالت السيدة ترافيس ذلك فيما كانت هي نفسها تتألق في ثوب حريري بلون اللؤلؤ: «يبدو هذا اللون وكأنه من لوحة قديمة!».

ـ إنه يسمّى «أحمر فينيسيا!».

وتقدمت أدريان، وقد استعادت شيئاً من شجاعتها بعد أن رأت كل الوجوه من حولها مألوفة. تنهّدت المرأة بسرور: «آه، فينيسيا! إنها إحدى المدن المفضلة عندي!».

ووكزت أدريان بمرفقها بإشارة ذات معنى: وهي الفردوس بالنسبة إلى شهر العسل!.

تمتمت أدريان بشيء غير مفهوم وهي ترى نظرة كاي الساخرة التي جعلتها تتأجج غيظاً. ثم تشاغلت بالحديث مع ناتالي بيرون. كان ظهر أدريان إلى الباب، عندما سمعت صوت كاي حاراً مرحباً: «ها أنت ذي

جئت أخيراً، يا عزيزتي! . تعالي أقدمك إلى الجميع!».

جمدت أدريان في مكانها لحظة، ثم رسمت على شفتيها ابتسامة أكثر إشراقاً وهي تلتفت لترى امرأة تقف بالباب.

كانت القادمة الجديدة نحيفة طويلة القامة. ترتدي ثوباً أسود أنيقاً. شعرها الفضي مقصوص ببساطة. وحول عنقها عقد من اللؤلؤ، وكذلك القرطان اللذان في أذنيها.

قالت بصوت هادىء واضح النبرات: «ليس إلى الجميع، يا كاي. فأنا أرى بينكم صديقة قديمة، على الأقل (وتقدمت نحو أدريان تأخذ يدها) كيف حالك يا أدريان؟».

أجابت أدريان بدهشة: «السيدة هادن؟! لكنني لا أفهم...».

فقاطعتها المرأة: «إنني، في الواقع، السيدة ستريتون الآن».

وأخذت تتفحص الفتاة بعينيها الرماديتين الشبيهتين بعيني ابنها. كان في أعماقها حزن، وقد غزت التجاعيد وجهها الأليف: «لقد تزوجنا أنا وأنغس بعد ذهابك إلى إسبانيا مباشرة».

هزت أدريان رأسها: «لم يكن لديّ فكرة!».

والتفتت إلى كاي عاتبة: «لم تخبرني!».

فقال ببساطة: «لم تسأليني قط عنها!».

كان هذا صحيحاً. وتملك أدريان الخجل من نفسها، فهي لم تسأله قط عن أحوالها ولا حتى عما إذا كانت لا تزال حية ترزق. وهمست لنفسها بصمت: «يا إلهي. كيف كنت عديمة الإحساس إلى هذا الحد؟!».

ثم قالت بهدوء: «آسفة جداً! ما أجمل أن أراك مرة أخرى، يا سيدة ستريتون!».

- هل علينا أن نتحدث بهذا الشكل الرسمي؟ أفضّل كثيراً أن أسمعك تناديني باسمي مارغريت.

وعادت تتفحص أدريان بإعجاب، ثم أومأت إلى كاي: «كان الحق معك بالنسبة إلى الثوب، يا عزيزي، فهو ملائم لها تماماً! (وربتت على

ذراعها) والآن قدمني إلى ضيوفك الآخرين».

كم من الصدمات والمفاجآت يمكنها أن تتحمل في اليوم قبل أن تسقط؟! أخذت أدريان تتساءل بذهول.

تحسن الحال عندما تكاثر الضيوف وانشغلت في التأكد من أن كل شخص قد حصل على شرابه والتقى من يتحدث إليه. كل ذلك لم يدع لها وقتاً للتفكير أو التأمل في الأسئلة التي بقيت من دون جواب.

تابعت الحركة محافظة بعناية على المسافة بينها وبين كاي كما هي. كانت تسمع من كل صوب عبارات المجاملة: يا لها من حفلة جميلة! يجب أن تشرفونا للعشاء... وكانت تبتسم وترد التحيات والمجاملات بمثلها، تاركة الجميع يعتقدون أنها باقية هنا لتلبي دعواتهم.

قالت لها اللايدي جيلمور: «يا لها من مفاجأة رائعة! كنت أعرف أن زوجة أنغس ستريتون الأولى ماتت، ولكن لم يكن لديّ فكرة عن زواجه مرة أخرى».

- صدقيني لا أعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق يا لايدي جيلمور....

خفضت اللايدي جيلمور صوتها: «كانت مقعدة تماماً. لقد أجهضت طفلاً في بداية الزواج، فانهارت أعصابها. أمضت عدة سنوات في مصح، وعندما بدا عليها التحسن، اكتشفوا اصابتها بأحد تلك الأمراض غير القابلة للشفاء. لقد تحطم قلب أنغس، طبعاً! اعتاد أن يزورها للاطمئنان».

(وتنهدت): «لم يلمه أحد لأنه طلق زوجته المريضة وتزوج بالسر مارغريت. وكانا بالغي الحرص والحذر في هذا الشأن فزوجته السابقة لم تعلم انه طلقها فقد كانت مجنونة لا تعي شيئاً. فقد ادعت هي أنها أرملة ذات طفل، وادعينا نحن أننا صدقنا ذلك. كان الأمر سيكون فظيعاً لو أن طليقته روث علمت بشيء من ذلك. وأعتقد أنها لم تعلم بشيء على الإطلاق».

حدقت أدريان فيها وهي تتذكر كاي جالساً إلى مكتب أنغس، وشعورها بأنها رأت شبحاً.

www.elromancia.com

قالت بشيء من التلعثم: «هل كاي هو ابن أنغس ستريتون. هل هذا ما قلته؟».

فقالت اللايدي جيلمور ذاهلة: «نعم، طبعاً يا عزيزتي! أظنك كنت تعلمين ذلك قبل أي إنسان آخر. كان أنغس ووالدك صديقين حميمين.. وكنت أنت... حسناً، كنت تقريباً واحدة من الأسرة».

وابتسمت لأدريان بحرارة: «وقد سررنا جميعاً عندما علمنا بأنك تزوجت بكاي. ما أحسن ما صارت إليه الأمور أخيراً! والآن، عليّ أن أتحدث إلى السيدة غرايمز عن «نادي غاردن...».

ثم انسحبت بلطف متوارية عن نظر أدريان. ووقفت أدريان مشدوهة، تحاول استيعاب ما عرفته لتوّها. كاي إذن هو ابن أنغس!.. ومع ذلك، أُبعد عن المنزل مرتين، مصحوباً بالفضيحة! كيف ولماذا سمح أنغس بحصول ذلك، مبقياً على بيرس وريثاً رسمياً له؟!.

تقطع عليها صوت كاي تساؤلاتها: «لقد ابتدأ المدعوون بالمغادرة!».

فقالت بسرعة: «كاي! أريد أن أتحدث إليك. لقد عرفت لتوّي عنك... وعن أنغس...».

ـ حسناً، وماذا في الأمر؟.

حملقت إليه: «كيف تسأل هذا السؤال؟ إنه... إنه يغير كل شيء!».

فقال بلطف: «كلا! إنه لا يغيّر شيئاً، أعتقد أن كل ما هو ضروري قيل سابقاً. والآن ساعديني على توديع الضيوف».

ذهبت معه طائعة، وقد أفزعتها كلماته الرافضة. بدا لها أن الباب إلى حياته قد أُغلق في وجهها نهائياً، وأنه قُدّر عليها البقاء خارجاً، وحيدة، مستوحشة، حتى النهاية. وذعرت لهذه التصورات.

* * *

١٢ ـ الياقوت يشفي

امتد نجاح حفلة الكوكتيل إلى العشاء. ذلك أن السيدة وبتلي كانت متفوقة للغاية. كان الطعام عبارة عن سلطة مع السمك والفراخ الصغيرة ثم «السوفليه». وقد أصبح حضور مارغريت ستريتون موضوعاً جديداً للاهتمام، بينما كانت هي تواجههم بظرف بالغ وثقة بالنفس.

منح الكلام والضحك أدريان فرصة ممتازة للترويح عن النفس بعد أفكارها التعسة المرتبكة. بدا لها وكأنها طوال تلك السنوات كانت تحدق في مرآة مقعّرة غير صادقة. والآن، ولأول مرة، أصبح بإمكانها أن ترى الأمور على حقيقتها، وتدرك أيضاً حماقتها التي تستحق معها العقاب.

ساد صمت مفاجيء حول المائدة، فنظرت أدريان بقلق، وإذا بها ترى كاي ينهض واقفاً، ثم يقول: «أريد أن نهنيء أدريان... التي استلمت منزلاً مهملاً فأعادته بيتاً حقيقياً. نهنئها على النجاح والسعادة، يا أدريان!».

وقبل أن تسترسل في تصوراتها، مدّ كاي يده إلى جيب سترته الداخلي وأخرج علبة مسطحة، ثم سار حول المائدة ليقف بجانب أدريان قائلاً: «لديّ هدية لك... شيء يذكرك بكل الأوقات التي أمضيناها معاً».

ووضع العلبة على المائدة أمامها، من غير أن يظهر على وجهه أي تعبير.

ارتجفت أصابعها وهي ترفع الغطاء، فقد كانت تتوقع ما ستراه، ولم تكن تدري كيف تواجه ذلك. أطلقت صرخة مختنقة عندما رأت أحجار

www.elromancia.com

العقد الداكنة الحمرة تلتمع أمام عينيها، بينما رفع كاي العقد وطوّق به عنقها، ثم قال: «كان قفله الأساسي غير ثابت فجعلتهم يصلحونه».

كانت نسيت تقريباً مبلغ جماله. نظرت إلى الأحجار تلمع على بشرتها الناصعة، ثم لمستها بإصبع واحدة، كأنها تخاف أن تحرقها. قالت بصوت كأنه صوت فتاة غريبة: «شكراً! لم أتوقع أبداً. . . شيئاً كهذا!».

ورفعت بصرها إليه، متفحصة وجهه الهادىء الغامض، متوسلة بصمت أن يخبرها. لكنه أشاح بوجهه وسار عائداً إلى كرسيه.

انحنت أرلينا ترافيس إلى الأمام: «إنها قطعة مجوهرات رائعة يا عزيزتي».

وألقت على الأحجار نظرة خبير ثم أضافت: «وقديمة جداً ونفيسة كذلك. هل لهذه القطعة تاريخ؟».

ـ آه، نعم!

كان هذا صوت مارغريت ستريتون.

ـ اشتراها، في الأصل، شاب هدية للفتاة التي كان يريد أن يتزوجها في يوم مولدها. لكن والديه، شعرا بأنها أصغر من أن تتخذ مثل هذا التعهد الخطير، وأن أي ذكر للزواج قد يجعلها تهرب خوفاً.

انتبهت أدريان إلى أنها توقفت عن التنفس تقريباً. ووجدت نفسها تنظر إلى المرأة كالمنوّمة، وهي تتابع قائلة: وكانت هناك عقبات أخرى أيضاً، عقبات خطيرة للغاية. وهكذا، كان الاتفاق على أن تقدم الأسرة هذا العقد بصيغة هدية في يوم مولد الفتاة، من دون ارتباط. وكان على الفتى أن يسعى إلى خطب ودها تدريجياً برقة ولطف. (وتنهدت) ولكن، لسوء الحظ، فشلت هذه الخطة، وافترقا متخاصمين بمرارة!.

وابتسمت لمن حول المائدة: «أعلم أنها قصة غير سعيدة، لكنها من الماضي، ولم يعد لها أية أهمية الآن. وأنا مسرورة لأن العقد وجد أخيراً طريقه إلى المكان الصحيح».

وماذا عني أنا؟ أرادت أدريان أن تصرخ بهذا، وقد تشابكت يداها في

حجرها حتى تألمت أصابعها. . . ألم يعد لي أهمية أنا أيضاً؟! حسناً، إن لديها جواباً حول عنقها. فالعقد كان هدية وداع!

نظرت إلى كاي، تريده أن يلتفت إليها، لكنه كان يتحدث إلى ناتالي بيرون فلم تر منه سوى جانب وجهه الذي كان قوياً إنما شارداً بشكل غريب. لا يمكن الوصول إليه. . . واعتصر الألم قلبها.

نهضت واقفة وقد تسمرت ابتسامة على شفتيها: «سيداتي، سادتي، هلا تفضلتم بتناول القهوة في قاعة الاستقبال!».

* * *

لم تكن فترة الاستراحة سهلة. ولكنها مع ذلك ابتسمت وثرثرت كأن شيئاً لا يشغل بالها.

جاءت باربرا جايمس وجلست بجانبها. أخذت تتكلم بلطف وبشكل عام عن إصلاح البيت، والمشاكل التي برزت أثناء ذلك، ثم استشارتها في مسألة تتعلق بطلاء حمام منزلها.

عندما ابتعدت باربرا، احتلت مكانها أرلينا ترافيس، وهي تعلن:

ـ جئت لألقي نظرة أخرى على العقد لأنّ المجوهرات القديمة هي هوايتي.

وتنهدت بشكل عاطفي: «إنها تذكار حب، يا عزيزتي! فالمتعارف عليه هو اختيار ياقوت يناسب لون شعر الحبيبة، وهذه الياقوتات تناسبك تماماً. ومع ثوبك هذا، تبدو خلاّبة!»

وضعت أدريان فنجان القهوة على المنضدة، ثم قالت بأدب: «آسفة، يا سيدة ترافيس، لم أفهم تماماً، فهذه الأحجار هي عقيق!».

ـ أوه، كلا يا عزيزتي! هل أنت مجنونة؟ إنها أحجار ياقوت، ومن النوع النفيس جداً.

وربتت على يد أدريان: «إذا لم تقنعك كلماتي، خذيها إلى الجوهري فتعلمي الحقيقة».

شعرت أدريان بخدر في شفتيها، لكنها استطاعت أن تقول: «سأفعل

ذلك».

ومنحت رفيقتها ابتسامة شكلية ثم وقفت: «المعذرة من فضلك!».

ثم سارت عبر الغرفة إلى مارغريت ستريتون: «هلا تكرمت باستلام مهمتي، يا سيدة ستريتون؟ لدي... لديّ صداع قوي وأود أن استريح قليلاً».

لم تنتظر الجواب، وإنما تمتمت بتحية المساء وخرجت. أغلقت عليها باب غرفتها، ثم استلقت على السرير، وهي تلهث.

ياقوت!... ودار رأسها. عندما كانت في الثامنة عشرة، ابتاع لها كاي ياقوتاً، لكنه لم يخبرها بحقيقة أمره. جعلها تظن أن العقد مرصع بأحجار نصف كريمة. لا يمكن أن يكون سرق هديته التي أحضرها لها! فلماذا اختفت القلادة، لتظهر أخيراً في غرفته؟

لا بد أنه بيرس!.. وشعرت بالاختناق. لماذا لم تفهم هذا من قبل؟ بيرس كان يعرف قيمتها، ولا بد أنه اعتبرها من ميراثه باعتبارها جاءت من أنغس، فكره أن يراها لغيره.

بالتأكيد لم يكن يعلم أن كاي ابن خاله. فقد كان دائماً في نظره «نجل مدبرة المنزل» ولا بد أن سرقته العقد ووضعه في غرفة كاي بدت له فكرة مثالية للتخلص نهائياً من منافسه الكريه. ذلك أن نفاسة الأحجار تجعل كاي معرضاً للقبض عليه، وبهذا يدقّ إسفيناً قوياً بين كاي والفتاة التي يحبّ، مدمراً التفاهم الجديد الذي نشأ بينهما بعد فشل محاولته السابقة.

أدركت أدريان أن بيرس لم يفعل ذلك لأنه كان يحبها ويريدها لنفسه، وإنما لاستغلالها. حتى عندما جاء إلى الكوخ أمس تصرف على أساس نفعيّ كريه واعترفت بأنها سقطت في الفخ! ولكن لماذا، عندما عرف الجميع الحقيقة عن العقد، سمحوا له بأن يفلت من العقاب؟ لم تفهم من هذا شيئاً.

لماذا لم يطرده أنغس ستريتون من بيته؟ ولماذا أبعد كاي البريء؟

أخذت تذرع غرفتها جيئة وذهاباً، وهي تلف ذراعيها حول جسمها بشدة. تذكرت نتفاً من حديث دار بين والديها. ملاحظات قاسية ومهينة

اعتقدت حتى الآن أنها بخصوص كاي. لكنها اكتشفت الآن أن بيرس هو الذي كان موضوع الملاحظات. بيرس هو الذي كان دوماً يطلب المال! بيرس هو الذي كان خطراً!

وتساءلت بندم شديد: كيف أمكنني أن أكون مخطئة إلى هذا الحد... وعمياء؟ ما زال هناك الكثير لم تفهمه، وقد لا تكتشف أبداً الحقيقة بأكملها.

خلعت ثيابها وارتدت الروب، لكنها لم تذهب إلى فراشها، كانت في غاية الإنهاك والتململ، فلم يقارب أجفانها النوم. وهكذا تكورت على الأريكة عند النافذة وأخذت تحدّق في الظلام، فيما الأفكار البائسة تتلاحق في رأسها.

وأخيراً، سمعت أصوات الضيوف وهم يصعدون إلى غرفهم. بعد ذلك بوقت قصير، سمعت قرعاً هادئاً على الباب، وصوت مارغريت ستريتون: «أدريان! هل أنت بخير؟ هل يمكنني الدخول؟».

أرادت للحظة أن تبقى صامتة مدعية النوم، لكنها عادت فأدركت أن ضوء غرفتها لا بد ظاهر من تحت الباب. وهكذا نهضت وفتحت الباب لتدخل السيدة ستريتون حاملة فنجان كاكاو:

ـ لقد انشغل بالنا عليك! وقلت لعلك بحاجة إلى فنجان كاكاو حار.

فقالت أدريان بتكلف: «هذا... لطف منك! ولكنني لم أكن بحاجة إلى هذا. شكراً على أي حال».

أخذت العينان الرماديتان تتفحصانها باهتمام: «يا لطفلتي المسكينة! لقد تلقيت كثيراً من الصدمات أثناء هذه العطلة الأسبوعية!».

فقالت أدريان وكأنها تحدث نفسها: «لا أصدق أنني لم استطع التكهن بالأمر! كيف لم أحرز أن كاي كان ابناً لأنغس؟ أنا التي كنت أدعي معرفتهما جيداً؟!».

ـ لست الوحيدة التي كانت تجهل ذلك. وفي الواقع، كان من المهم جداً ألا يعلم أحد بحقيقة الأمر.

www.elromancia.com

ـ حتى بيرس مندوزا؟

ـ بل هو على الأخص!

ـ ولكن لماذا؟

ـ تعالي نجلس هنا.

وأمسكت مارغريت بيد أدريان وقادتها إلى الأريكة: «لم تعرفي قط هيلين شقيقة أنغس. كانت من أجمل الفتيات، لم تتجاوز الثامنة عشرة عندما تعرفت إلى لويس مندوزا، والد بيرس، وتزوجته رغماً عن أنغس الذي كرهه منذ البداية. كان في نظره شيطاناً حقيقياً، رغم وسامته وظرفه. والواقع أنه استعلم من خلال بعض الأشخاص، فاكتشف أن لويس محتال ومقامر خاسر، له ضلع في كثير من الفضائح. لقد ماتت هيلين عندما كان بيرس طفلاً رضيعاً. قتلت في حادث اصطدام مع سيارة وهرب السائق، وحين ماتت كان زوجها مؤمّناً على حياتها بمبلغ كبير منذ عام!».

رفعت أدريان يدها إلى فمها: «رباه!.. أتعنين؟».

فأومأت المرأة: «لم نحصل على أي إثبات، لكن أنغس كان مقتنعاً بأن لويس هو الذي خطط لذلك. لقد سبق واستولى على أموال هيلين الخاصة، وكان مديناً بمبلغ كبير. (وتجهم وجهها) كما الأب كما الإبن!».

وسكتت لحظة: «علم لويس أن زوجة أنغس في حالة ميؤوس منها، ولن تعطيه طفلاً ووريثاً، وبذلك يكون بيرس وريثه الوحيد. ولما كان أنغس مقتنعاً بأن لويس لن يتورّع عن تحطيم أي شيء يقف في طريق ابنه بيرس، فقد لجأ إلى التكتم حفاظاً على أسرته. وهكذا كان على كاي، لأجل سلامته، أن يكون إبن مدبّرة المنزل! بعد موت لويس، منح أنغس ابن أخيه فرصة إكراماً لأمه هيلين، ولكنه سرعان ما اكتشف غلطته. قد تنقص بيرس قسوة أبيه، لكنه بارع مثله في الاحتيال... والابتزاز! لم يتكهن بالحقيقة، لكنه لاحظ عطف خاله على كاي فأخذ يخطط لتدميره. كل شخص أحبه أنغس اعتبره بيرس تهديداً لإرثه. وهذا هو السبب في أن أنغس تظاهر بطردنا، أنا وكاي، ثم انتقل إلى إسبانيا، ليوهم بيرس بأنه نجح في خطته».

ـ هل تحدثت عن.. «ابتزاز» يا سيدة ستريتون؟

فأومأت مارغريت: «نعم! لقد عرف بيرس أن أنغس تزوجني بعدما طلق زوجته، وهدد بإبلاغ زوجته السابقة التي لم تكن تدري أنها لم تعد زوجة أنغس. كانت روث منهارة جسدياً وعصبياً، فتنتابها نوبات فظيعة من الهستيريا والاكتئاب، حتى إنها حاولت الانتحار ذات مرة. في الفترة الأخيرة من حياتها دخل في روعها أنها لا بد ستشفى بمعجزة فتعود إلى بينها وحياتها الزوجية».

واغرورقت عينا مارغريت بالدموع: «ما كان لأحد أن يحرمها من التعلق بهذا الأمل ـ الوهم في المدة القصيرة المتبقية لها من الحياة!.. وهكذا كان على أنغس أن يشتري سكوت بيرس بالمال».

قالت أدريان بأسى: «نعم!.. ولكن لا بد أن هذا الوضع كان صعباً جداً بالنسبة إلى كاي.. وإليك!».

فابتسمت المرأة: «كاي فتى واقعي، مثلي. كان دائم التصميم على أن يشق طريقه بنفسه إلى النجاح، وكان يعلم أيضاً أن بيرس لن يستطيع الاحتفاظ طويلاً بالمنزل «غرانج»، وما عليه سوى التحلي بالصبر».

عضت أدريان شفتها، ثم قالت: «صحيح! لقد كان في منتهى... الصبر!».

نهضت السيدة ستريتون وقالت برقة: «حاولي أن تنامي الآن.. أخبرني كاي كل شيء عنك وعن الضائقة المالية التي كنت تعانين منها كما أخبرني أنك تزوجته مرغمة.. ولكن الآن ليس الوقت المناسب للحديث. أما بالنسبة لي لا تقلقي ولا تنهضي باكراً في الصباح. سأرافق أرلينا والآخرين إلى معرض التحف، وليس عليك أن تقومي بذلك».

ـ هل هذا يعني أنني حرة في الرحيل وأن كاي سيباشر بمعاملات الطلاق؟

عند الباب، استدارت مارغريت ستريتون وابتسمت لها: «طبعاً، إذا كان هذا ما تريدينه. وأنت وحدك من يدرك ذلك، يا أدريان، فالخيار لك

كلياً. تصبحين على خير يا عزيزتي».

بعد خروج مارغريت، بقيت أدريان جالسة مكانها وقتاً طويلاً، ثم سارت إلى خزانتها في غرفة النوم وأخرجت العلبة المخملية القديمة الفارغة التي كانت في الأصل تحتوي على العقد. كانت تذكرها كل تلك السنوات بقلبها المحطم والغدر بها، وها قد حان الوقت لتعديل الأمور... وللكفاح، حسب نصيحة زيلدا.

وضعت العقد في علبته القديمة، ثم خرجت على مهل إلى الممّر قاصدة غرفة كاي. لم تقرع الباب. أدارت المقبض فقط ثم دخلت. كان واقفاً عند النافذة ينظر إلى الخارج، وقد خلع سترته وربطة العنق السوداء، من دون أن يغيّر ملابسه.

استدار ببطء ثم ألقى عليها نظرة شاملة لا تخلو من دهشة: «أليس الوقت متأخراً قليلاً لمثل هذه الزيارة؟».

ـ أعدك بأن تكون الأخيرة، ولن أزعجك مرة أخرى. جئت لأعطيك هذه.

ومدّت إليه يدها بالعلبة المخملية: «لا يمكنني الاحتفاظ بها، يا كاي! (وارتجف صوتها قليلاً) لقد كلّفت الكثير.. من كل النواحي..».

ـ يا إلهي! هل احتفظت بهذه العلبة الفارغة كل ذلك الوقت؟ لماذا يا أدريان؟ لكي تذكري نفسك بمبلغ كراهيتك لي؟

أجابت ببرود ظاهري يخفي انفعالاً قوياً: «لكنها لم تعد ضرورية، ولهذا أعيدها إليك مع الياقوتات».

ـ اعتبريها مكافأة لك.

لم يحاول أخذها منها. وكانت عيناه عنيفتين: «أكثر الناس يتوقعون نوعاً من المكافأة بعد انتهاء صفقة ما».

ـ حسناً، أنا لست أكثر الناس.

وحملقت فيه: «كما أنني لم أعد أحتمل ألاعيبك اللعينة!».

ـ ألاعيب؟!

والتفت إليها بوحشية: «ومن أنت لكي تتهمني بالألاعيب؟!».

وهز رأسه: «ظننت أنك تركت بيرس وعرفت حقيقته أخيراً. ولكن، لا! فقد عدت إليه في أول فرصة سنحت. حسناً، اذهبي إليه يا أدريان، إذا كان يريدك. ولكن احتفظي بالعقد وأودعيه البنك. ستكونين بحاجة إليه عندما ينبذك بيرس مرة أخرى، أو عندما يكون عليك أن تشتريه».

وصدرت عنه ضحكة قصيرة لا هزل فيها: «قالوا قديماً: إن الياقوت ترياق للسم وشفاء من الحزن. وأرجو أن يكون ذلك صحيحاً لأجلك. لأنك بحاجة إلى الاثنين».

في هذه اللحظة، كانت أدريان بحاجة إلى كل شجاعتها، فقالت:

ـ لم أحتج أحداً غيرك في حياتي، يا كاي! ولم أرغب في سواك!

فتوتر فمه: «هذا غير صحيح! ونحن الاثنين نعلم ذلك. كنت مصممة على الزواج به».

ـ لست فخورة بذلك، ولم أنظر قط إلى ما وراء لطفه الظاهر. ربما لم أشأ ذلك. كنت أعيش في وحدة قاتلة، يا كاي، وتأكل الوحشة قلبي! لقد انتظرتك وانتظرتك، لكنك لم تعد قط. وكان هو وجهاً أليفاً لديّ، شخصاً يذكرني بذلك العهد الذي لم أكن فيه وحيدة.

فقال بخشونة:

ـ وهل كانت الوحدة التي أعادتك إليه أمس؟ كنت هناك، يا أدريان، ورأيته في منزله. ألم تدعيه أنت!

ـ كلا! لم أدعه بل جاء على حين غرة، وهذا أمر مختلف تماماً. وأعتقد أنه كان يريدك أن ترى ذلك. لأي سبب إذن كنت أنت هناك؟

فقال ببطء وقد قطب جبينه: «جاءتني مخابرة تليفونية، استلمتها جين، تقول إنك ستتأخرين في العودة لأنك قابلت صديقاً قديماً».

ـ وقد اتصل بي أيضاً بتليفونه الخلويّ ليتأكد من وجودي في بيتي. لا بد أنه اتصل «بغرانج» بعد ذلك. لقد نصب لنا الفخ، يا كاي، ومرة أخرى وقعنا فيه!

www.elromancia.com

ـ لكنك اعترفت بنفسك بأنه يريدك أن تعودي إليه!

ـ رددت عليك ذلك حين آلمتني واتهمتني بأنني قابلته من وراء ظهرك!

وبسطت يديها: «إن شعري أحمر، يا كاي، وهو يدل على النزق والحدة في الطبع كما تعلم، ولن أستطيع تغيير ذلك، إلا عندما أصبح عجوزاً شمطاء، على كل حال».

فقال بهدوء: «لن تكوني كذلك أبداً، يا أدريان. الصورة التي سأراك فيها دوماً هي صورتك بالثوب الأحمر وبعقدي حول عنقك».

فقالت بصوت متهدج: «كاي... لا...».

فتابع يقول مقاطعاً: «كنت طفلة وحيدة منطوية على نفسها، وكنت أنا أيضاً وحيداً منطوياً. أقنعت نفسي بأن هذا ما أحبه، وكنت دائم الشعور بالنقص أثناء غيابك... وفيما كنت تكبرين وتنضجين، كان عليّ أن أتقبل فكرة أننا أصبحنا غريبين، وأن عليّ البقاء بعيداً... وحيداً في عزلتي».

كان في عينيه حزن، وعلى شفتيه ضعف غريب: «انتظرت بفارغ الصبر أن تتوقفي عن كراهيتي، مشوّقاً إلى اللحظة التي ستنظرين فيها إليّ وتبتسمين مرة أخرى. وعندما حدث هذا أخيراً، شعرت وكأنني ولدت من جديد. (وتنهد) كنت ابتدأت لتوّي في تكوين بعض المال عندما رأيت العقد. أدركت أن عليّ شراءه لك، أردته أن يكون حجاباً يحفظك حتى تصبحي على استعداد للزواج بي. كنت سأطلب منك ذلك أثناء تلك العطلة الأسبوعية. لم يكن أي منا يتوقع حضور بيرس حفلة يوم مولدك. فقد ظهر فجأة، وخيل إليّ أنك لا بد دعوته بنفسك».

ـ كلا... لم أدعه قط!

ـ وهكذا كان عليّ أن أغيّر خطتي. لم أجرؤ على جعله يعلم بحبي لك، ومبلغ جدية هذا الحب، لأنني خفت أن يحاول تحطيمه.. أن يأخذك مني. وعندما سرق العقد ووضعه في غرفتي، أدركت أن أبي أنغس كان على صواب، وأن بيرس لا يتورع عن أي شيء لتحقيق غرضه، وفي المرة التالية قد يستعمل المخدرات ضدي. وهكذا لم أستطع توريطك معي. فقد كنت

صغيرة... وضعيفة جداً. حدثت نفسي بأن الوقت غير ملائم الآن، وأنني يوماً ما سأعود لآخذك. ولكن عندما رأيتك أخيراً وجدتك مخطوبة له!.

وتحشرج صوته فجأة.

ـ هل يمكنك أن تتصوري شعوري حينذاك؟ لم أستطع أن أرى شيئاً... أو أفكر بشيء.. سوى أنك معه.. معه! (وارتجف) كدت أجن... حدثت نفسي بأنك كنت له، لكنك ستصبحين لي وبأيّ وسيلة. خططت لانتزاعك منه وجعلك تستمتعين بحبي على نحو يطرد بيرس من ذهنك إلى الأبد، لا ترين أو تذوقين أو تتنفسين سواي. لكنني، بدلاً من ذلك، عاملتك بوقاحة ولم أكن أعلم أنك ما زلت على صفائك وعذريتك.. ولن أغفر لنفسي ذلك أبداً!».

فحملقت فيه: «هل هذا هو سبب لاقتناعك بأنك آذيت شعوري؟».

فقال بتعب: «كنت عذراء، يا آدي.. وكان عليّ أن أعلم ذلك وأعاملك بشكل مختلف».

فقالت بصوت يلتهب حباً: «كاي.. يا حبيبي الأحمق، لم أكن أريدك أن تخاف عليّ، كنت أريدك أن تحبني، أن تقبلني، أن تريني كيف ستصبح الأمور بيننا. لقد ظننت أنني خيّبت أملك، وأنك لم تعد تريدني».

ـ لقد أردتك طوال حياتي.

وبدا في صوته توق إلى شيء أعمق، شيء بدائي ألهب قلب أدريان فجأة: «رغم كل الغضب والفراق، بقيتِ أنتِ نجم حياتي يشدني نحوه باستمرار. كنت أريد أن أبقيك آمنة؛ وبدلاً من ذلك، أبعدتك عني!».

نهزت رأسها وقالت بصوت أبحّ: «قالت أمك إن الخيار لي، في البقاء أو الذهاب. وقد اخترت أنا البقاء! آه يا حبيبي... دعنا نكفّ عن معاقبة بعضنا البعض ونصبح سعيدين، فأنا لك... إذا كنت تريدني».

فاحتضنها بين ذراعيه، واضعاً خدّه على خدها:

ـ أريدك؟ إنك نصفي الآخر. آدي أنت حبي الحقيقي والوحيد...

ـ تقول هذا بينما كنت ستطردني.

وضعت يدها على قلبه، تتحسس خفقاته.

- لكي ألحق بك.. قبل أن تبتعدي. وكنت آمل، إذا تركتك تذهبين، أن تفتقديني وترغبي في العودة إليّ. (وتابع ممازحاً) وإذا فشل معك كل شيء، فقد ترغبين في المنزل غرانج.

فقالت: «المنزل رائع!... ولكنني مستعدة أن أغادره غداً لأذهب معك».

فقال برقة بالغة: «بل سنبقى. لقد حان الوقت لنجد السعادة هنا... والحياة الجديدة».

- وسنبني بيت الشجرة مجدداً!

- بل عشرين بيت شجرة، إذا شئت!

فقالت تحذره: «وسنتشاجر!».

- وكيف سنتصالح إذن، إذا لم نتشاجر؟

- هل ما زلت تريدني زوجتك؟

وابتسمت بمكر، فقبل شعرها.

همس: «هذا هو اتفاقنا، يا حبي... لا نقاش في ذلك... لكن هذه المرة إلى الأبد!».

- إلى الأبد!

***

www.elromansia.com
مـــــــروايـــــة